يوسف إدريس



العسكري الأسود

Looloo
www.dvd4arab.com

دار العودة - بيروت

١

حين أتحدث عن السر الذي كان يحيرني في «شوقي» ولا أعرف له سببا أو تفسيرا ، لا أقصد إبتسامته المشهورة عنه التي كان لا يبتسم ليعبر بها عن شيء بقدر ما يستعملها كقناع داخلي يخرجه من فمه حين يريد ليغطي به ملامحه ويخفي وجهه الحقيقي عن الناس ، ولا أقصد أيضا نظرته، النظرة التي كان يطليها بزيت تعبيري معين دوره ان يجعل بصرك ينزلق عن عينيه ولا يستقر لحظة ، وكأنما لو استقر لادركت سره وعرفت ما به ، ولا اقصد ايضا الطريقة الغريبة التي كان يتصرف بها انبثاقة الانفعال المفاجئة التي يدهش بها الحاضرين كلما ضمه مجلس وأفلتت من احد الموجودين كلمة ما ، اثارت تعليقا ما واذا بك بعد ثوان قليلة من ضيقه المباغت تجده على قدميه ، وقد افتعل عذرا لا يهمه ادراك الحاضرين لوجاهته ، وغادر المكان الى الخارج الطلق الى

اي مكان . هذه ايضا لا اقصدها ، ما اقصده شيء بالضبط لا أستطيع التعبير عنه ، بل ولا حتى نجحت في اكتشافه بعد الحادث الهائل الذي قدر لي ان اكون شاهد عيانه ، الحادث الذي كثيرا ما جلست وحدي استعيد دقائقه ، لعلي ألمح هذا الشيء الواهي المروع الذي كان «شوقي» يضم عليه جوانحه ، واشهد اني في احيان قليلة جدا استطعت بالكاد محاصرته وان فشلت في تحديده ومعرفته ، بل لكي أكون صادقا مع نفسي ، أعترف اني في جلوسي لكتابة ما حدث ، ليس لي من هدف سوى امل واحد : ان اوفق عن طريق الكتابة فيما فشلت فيه عن طريق الخيال ، بصراحة أكثر أقامر ، اذ من يدري ، لعلي اذا انتهيت أكون قد فسرت كل شيء ، ووصلت الى الحقيقة التي دوختني محاولة الوصول اليها ..

٢

بدايتنا متواضعة جدا ، لم اكن اتصور ابدا ان باستطاعتي ان اصل منها الى سر ما ، خطير او غير خطير . البداية مكتب حكيمباشي المحافظة في بناية المحافظة القديمة التي تهدمت الآن . كنت كلما وجدت نفسي في ميدان باب

الخلق بساعته المعهودة، وواجهة دار الكتب ومئذنة الجامع القائم في وسطه كالنافورة العالية التي جف ماؤها.. تذكرت «شوقي» ، وكلما تذكرته وجدت نفسي مدفوعا بشكل تلقائي للذهاب اليه، خاصة اذا كان الوقت بعد الظهر، اذ ان «شوقي» كان يعمل في المكتب الطبي للمحافظة ، وكان ، لأسباب ليس هنا مجال تقصيها قد اختار فترة بعد الظهر ليكون النوبتجي فيها ، اسباب لعل احدها واهمها ان الطبيب حين يعمل في تلك الفترة كان ينفرد بالعمل في المكتب ويصبح هو رئيسه ، فالحكيمباشي لا يعمل الا في الصباح .. ورئاسة المكتب الطبي ، والجلوس على كرسي الحكيمباشي ، وتلقي تحيات المراسلة والمستخدمين متعة لا بد أن ترضي غرور أي طبيب شاب ، اما حين يعمل في الصباح فلا يصبح اكثر من مجرد طبيب مرؤوس واحد بين اربعة او خمسة زملاء ..

ونفس هذا المكتب هو الذي كان يضمنا حين القى عبدالله التومرجي بتلك الجملة التي قلبت جلستنا بل علاقتنا كلها رأسا على عقب ، قال :

ـ ده خلاص يا بيه.. الراجل بقى يهبهب زي الكلاب ويعوي زي الديابة .

حسبتها أول الامر احدى مبالغاته، ومبالغات عبدالله



التومرجي كانت شيئا مشهورا في المكتب ، خاصة في تقدير أثمان القهوة والشاي وحساب السندوتشات • وعبدالله لم يكن تمرجيا أصلا ، كـان عسكريا في القسم الطبي بالجيش ، وحين دخل البوليس جعلوه مراسلة للمكتب الطبي ولكنهم وجدوه أكثر لحلحة وذكاء من التومرجي الاصلي ، أعطوه دوره ، وأصبح بجلبابه « الدمور» الميري وطاقيته ذات الحائط العالي وجبهته العريضة اللامعة المائلة في خجل خبيث دائم ، وبالذات حين يخفضها ويقول بلهجة خضوع عسكري ظاهر : أفندم ، كلمة ذات وقع على آذان الاطباء المدنيين تتيح لهم بعض متع العسكرية ودفء سطوتها أصبح عبدالله بهذا ، وبقبقابه الذي كان لا يتناسب أبدا مع حركته الكثيرة علامة من علامات المكتب الرئيسية ، كما أصبحت وقفته امام باب الحكيمباشي نصف المغلق ، وشخطه في الرواد القـادمين متأخرين والتحايل لابعادهم ، علامة رئيسية من علامات جلستي مع «شوقي» •

ولولا رنة دخيلة صادقة في جملته ، ما التفت «شوقي» أو التفت اليها ، كنت قد تعودت اذا بدأ « شوقي » يتحدث في العمل مع عبدالله أو غيره ، أو يزاوله أن أنصرف كلية لافكاري وتأملاتي •• الجملة استخرجتني منها وجعلتني أسأل عن هذا الذي يعوي كالذئاب ويهبهب كالكلاب ،

وأجد انه دوسية ، أو على وجه اصح صاحب الدوسية الضخم الذي كان موضوعا فوق مكتب « شوقي » ••• كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف ، وكنا في الصيف، والحجرة قد خلت من روادها • ورواد الحجرة معظمهم من مجتمع القاهرة السفلى متسولون ، ومتشردون ومجاذيب وذوو عاهات • ومدعون ومتشاجرون ، فرادى وجماعات، في سلاسل وكلابشات ، وأحيانا مربطو الجلابيب حتى لا يغافل أحدهم العساكر وينسل هاربا •• رواد بمحاضر وخطابات من الاقسام لتوقيع الكشف الطبي عليهم لتقدير أعمارهم • وعاهاتهم ، تمهيدا لسلسة الاجراءات الطويلة التي تتخذ معهم •• ولا يخلو الامر من متشاجر انيق ، او تهمة بهتك عرض ، او بنت ذوات ، •• هذا عدا العساكر طالبي الاجازات ، وأحيانا شاويشية وضباط ، عدد ضخم، كان طابوره يبدأ من باب المحافظة • ويملأ فناءها الـواسع وينتهي عند ذراع عبدالله الممتدة تسد باب المكتب الطبي المفتوح وعند صوته المبحوح المطالب عبثا باحترام الدور•• العجيب أن « شوقي » كان ينتهي من طابور بعد الظهر كله فيما لا يزيد على الساعة ولكن أي ساعة ، حتى حين تخلو الحجرة بعدهم ويوصد عبدالله الباب يبقى الجو مشبعا بأشباح تكاد تتدخل في الحديث الدائر بيني وبينه ، أشباح أشخاصهم ومآسيهم ، وأشباح روائحهم أيضا ، روائح

خاصة ، ليست مقززة كما قد يتبادر الى الذهن ولكنها مختلفة بالتأكيد عن رائحة الافندية مثلا او جموع الفلاحين، رائحة لا تصبح مقززة الا حين تختلط برائحة الفنيك الذي ترش به الارض ، وال د.د.ت. وعرق المبنى العتيق والاثاث الذي بقرت مسانده ، وتتجمع هذه كلها ، ويأتي عليها ظهر يوم صيف كيوم الصيف ذاك وما بعده فيحولها الى بواخ يملأ الحجرة ، وينعقد حتى سقفها العالي ، بواخ يخنقنا ويكاد يدفعنا لمغادرة المكان . ولكننا لم نكن نفعل.. بالعكس ، كان احساسنا بالاختناق الخارجي ذاك يوفر علينا الكثير من احساسنا بالاختناق الداخلي ..

كنت و « شوقي » شابين من شباب الجيل الذي اصطلحوا على تسميته بالجيل الحائر . صديقين بلا سبب يدعونا للصداقة او حتى للانتساب الى جيل واحد،تفتقت عنا الحرب العالمية الثانية لنجد أنفسنا هكذا زملاء في كلية او جامعة واحدة ، بنزعات سياسية وآراء في الناس والحياة لا يمكن أن يربط بينها رابط ، ومع هذا فكنا أصدقاء لا لاننا كنا هازلين في خلافاتنا اذ الحقيقة أننا كنا فيها أكثر من جادين ، وتمسك كل منا برأيه ووجهة نظره كان يصل أحيانا الى حد ارتكاب الجريمة ، ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا جميعا نؤمن ، رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو

العناية لتحقيقها ، انقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييرا جذريا ، والى الابد ، وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي .

كان تعارفنا في مؤتمر للطلبة عقدناه في الكلية،وتيجة تشاتم في الرأي ولا اقول خلافا ، تشاتم كاد يصل الى حد التشابك ولكنا حين خرجنا من المؤتمر كنا قد نسينا الخلاف، وكنا نتعازم على الشاي .. وصرح لي ونحن جلوس على المقهى أنه — بينه وبيني — كان يوافقني في الرأي لولا الموقف الذي كان عليه فيه ان يناصر زملاءه اعضاء الجماعة التي كان ينتمي اليها . ولكنها نقطة واحدة هي التي كنا مثقفين فيها ، فقد كان استنكاره لما أؤمن به لا يقل عن استنكاري لآرائه ومعتقداته ... ولم تفعل الايام التي تلت اكثر من ان تزيد كلا منا استنكارا لآراء الاخر ، ولا أعرف مع هذا لماذا كانت في نفس الوقت تزيد من علاقة كل منا بالآخر ...الجيل واحد صحيح ولكنه شيع،واهتمامات ... أناس منا كانوا يمرحون ويقضون الليالي حول موائد البوكر الذي يلعب بقروش ويسمونه قمارا ، وشلل أخرى « تزوغ » من المحاضرات وتدمن حفلات السينما الصباحية، وفرق همها الرياضة والجري بالفنلات حول الملاعب ، وجماعات للاغتيال والارهاب ، ونحن المهتمون بالسياسة



والمؤتمرات والخطب ، نحن الذين نبادل الاخرين الرياضيين وأصحاب النزوات الاحتقار ، ونرد على اتهامهم لنا بأننا مهاويس ، باتهامنا لهم بأنهم منحلون ... وفيما بيننا ايضا تتبادل التهم ، التعصب يرد عليه بالالحاد ، والفاشية يرد عليها بالشيوعية ، ومع ذلك ، وربما من أجل ذلك ، يظل يجمعنا ذلك القوس العريض الذي كنا نطلق عليه برهبة وتقديس ... السياسة . « شوقي » بالذات كنت شديد الضيق منه قبل أن أعرفه ، يذكرني اذا ما قام ليخطب بباعة « الشرب » وخالعي الاسنان في الاسواق ، بل حتى شكله لم أكن أستلطفه ، كان شاحب الوجه لسبب غير معلوم وبطريقة يبدو معها شاربه الغزير أكثر سوادا من حقيقته ، شاربه الذي ما هضمت ابدا اسباب وجوده ..ولا استطعت ان افسر هذا التناقض الواقع بينه وبين ذقنه . فهو غزير وذقنه ملساء ناعمة نادرة الشعر كذقون المراهقين . كان نحيفا ، متوسط القامة ، جاد الملامح الى درجة لا تملك معها الا الاستخفاف بجده . كان أحد زعماء الكلية ، وأحد زعماء مذهبه ، ولكنه أبدا لم يكن ذلك المتهوس الاحمق الذي لا يفلح معه تفاهم أو نقاش ... كان دائما على استعداد لمناقشة أكثر الآراء بعدا عن رأيه ، يرحب بالجدل بابتسامة واثقة ، ولا يثور ... وكثيرا ما كنت أتحسر ، وأعتبر أن عيبه الاكبر انه في المعسكر الاخر ، وأحلم بأني

يوما استطعت اقناعه ، وبأننا يوما ما اتفقنا على رأي،ولكنها أحلام ، مجرد أحلام ، فقد كان « شوقي » يتمتع بطاقة ارادة هائلة وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ومتأكد أنه واصل اليه لا محالة . وكان يبدو وكأن ارادته تلك ترسب ايمانه في قلبه طبقة فوقها طبقة ، وكل يوم تزيده عمقا وتشعبا ، بطريقة محال معها من أن يتزلزل ايمانه ذلك بايمان جديد .

الى أن حدث ذلك الحادث السياسي الذي هز البلاد كلها ، وقبض على « شوقي » ، وأدخل السجن تمهيدا لمحاكمته . وربما لفرط ايماني به كزعيم من زعماء جيلنا ، وتقديري له ، عجبت للاسف القليل الذي أعقب اختفاءه من الكلية ، حتى بين البقية الباقية من أفراد جماعته . وكنت كلما سألت عنه ظفرت باجابات غامضة عن مصيره ، بل ولكي أسجل الحقيقة ، تنصلا من الاجابات الحقيقية عن مصيره ومصير المقبوض عليهم من زملائه وغير زملائه .

ولا أعرف اذا كنتم لا زلتم تذكرون تلك الفترة من تاريخنا القريب ، ولكني متأكد أن جيلنا أبدا لن ينساها ، جيلنا الحائر وأعوام ٤٧ ، ٤٨ ، والاحكام العرفية ، وعهود الارهاب البشع المخيف .

تلك الفترة كانت أول ضربة جدية تلقاها جيلنا ...



خرجنا من الحرب لنجد جيوش الاحتلال ترتع في أرضنا ، ثرنا ، فحاولوا الضحك علينا بالجلاء الصوري الى القنال وفايد . ثرنا مرة أخرى مطالبين بالجلاء الكامل ، والكفاح المسلح . وهذه المرة ضربونا ، جاءوا بدولة الباشا وضربنا علقة كوبري عباس ، وحاول أن يضرب أكثر فقتل ،فجاءوا بدولة باشا آخر ليكمل العلقة . وأكملها ، فتح السجون على آخرها ، سلط الارهاب بكل أشكاله ، كمم الافواه ، أخمد الاصوات ، أطلق العملاء . وبعد أن كانت كليتنا تموج بالمؤتمرات والخطب والثوار أصبحت تموج بالبوليس السياسي والاشاعات والخوف وحرب الاعصاب وتشتت شمل الجيل ، دخل السجن بعضه ، والبعض اختفى وهرب في الارياف ، والمدن البعيدة ، وأحيانا داخل نفسه ، حفر حفرة عميقة في صدره دفن فيها ثورته ومعتقداته وردم عليها وأصبح همه الوحيد أن يردم عليها أكثر وأكثر ويدعي عكس ما يعتقد ، في تلك الاثناء شاعت قصص التعذيب ، وطار صيت العسكري الاسود وما يفعله بالمساجين المعتقلين ، وأصبح رمزا لكل ما يناله جيلنا من ضربات وأصبح هو مبعث رعب الجيل ، ذلك العسكري الذي كان يرقد « دوسيهه » بعد سنوات كثيرة وسنوات ، على مكتب « شوقي » ، والذي كان مقدرا لنا أن نراه بعد هذه المدة الطويلة ، وبطريقة لم نحلم بها ابدا .

٣

وليست هذه محاولة لسرد تاريخ ، إن هي الا لمحة نعود بعدها لشوقي ، اذ بعد شهور طويلة من انقطاع الصلة بيننا لم أره الا يوم الامتحان . فوجئت به يدخل علينا الخيمة ومعه جمع من زملائه مكبلين بالحديد ومعهم جيش من الحراس ببنادق وكونستبلات . يومها عبر اللجنة وأوراق الاسئلة . تبادلنا ابتسامات ، راعينا ان تكون خفية، وكأن عيونا غير مرئية ستلحظها وتسجلها ، ألم أقل اننا كنا في فترة ارهاب وماذا يفعل الارهاب أكثر من أن ينجح في جعل كل منا يتولى ارهاب نفسه بنفسه ، فيقوم هو باسكاتها واخضاعها للامر الواقع الرهيب ؟؟!

المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، كانت، اني عرفت حين ظهرت النتيجة أن « شوقي » قد نجح . كيف ذاكر وعلوم الطب

تحتاج الى الخبرة العملية والمران ، وكيف أجاب ، وكيف نجح ، لا أعرف ، المهم أنه نجح ، ومع هذا ظل مسجونا لا يفرج عنه ولا يقدم للمحاكمة ولا يواجه بتهمة ، أشياء لا تحدث الا في عصور مظلمة ، أو في بلاد ، رغم العالم المضيء ، لا تزال تحيا في تلك العصور ... لم يفرج عنه الا بعد انقضاء فترة طويلة ، ولم أعرف بالخبر الا حين كنت مارا بالقسم الذي أعمل به في المستشفى الكبير بعد تخرجي فلمحته جالسا في غرفةالحكيمةوعليه سيماء التردد والحرج وكأنه قادم لزيارة مريض ، والمفاجأة الكبرى التي كانت تنتظرني أني عرفت أنه قد عين في نفس المستشفى ، بل أكثر من هذا في نفس القسم الذي أعمل فيه . ورغم انشغالي بضجة الترحيب به لم يفتني أن ألاحظ أن أشياء كثيرةجدا تغيرت فيه ، الى درجة حسبته للوهلة الاولى انسانا آخر، خاصة وجسده نفسه كان قد تغير وأصابه ما يصاب به المسجونون من ترهل ، وحتى ذقنه نبتت وغزرت وأكسبت لونه سمرة . ولكني على أية حال قابلته كما يقابل البطل العائد من معركة ، والمكافح الخارج من سجن بعد اتهام خطير . وكذلك ظللت أعامله — ولم أكن وحدي ، زملاؤنا الاطباء وممرضات القسم ، وبعض مرضاه ممن عرفوا قصة الطبيب الجديد، كلنا ظللنا نعامله، ونتوقع منه دور البطل، ونتقبل تصرفاته خلال الايام الاولى لالتحاقه بالعمل على

أنها نوع من التواضع وانكار الذات ... كان التخرج قد عمل عمله في نظرتي للناس والاشياء ... وخفف من حدة اعتدادي برأيي وايماني وأصبحت أومن بالحسن أنى وجد الحسن وبالبطولة أنى وجدت البطولة ، وأصبحت أحتفل بكل عمل مخلص حتى لو صدر عن مخالف في الرأي وعدو في العقيدة ... وكان أقصى آمالي أن تحين اللحظةالمناسبة لاجلس جلستي التاريخية مع « شوقي » ويقص علي فيها كل ما دار له في رحلته التاريخية المليئة لا بد بالمواقف والبطولات ... والحقيقة حانت أكثر من لحظة وأكثر من مناسبة وألقيت على « شوقي » أكثر من سؤال وكانت النتيجة أني لم أظفر منه فقط بأي جواب ، بل كان يحدث « لشوقي » حالة أحس معها أنه يبدو عليه وكأنه ينكر أصلا أنه سمع السؤال ، اعتقدت أول الامر أنها مغالاة من « شوقي » لتجنب الحديث أمام المرضى او على مسمع من الزملاء او الحكيمات ، انه على أسوأ الفروض يؤجل الحديث الى زمن قادم قريب ، ولكن الزمن كان يمضي والايام تنقضي فلا تزيده الا استمساكا بموقفه ، مشكلة أخذتها أول الامر ببساطة ولم أعتقد أبدا أنها يمكن ان تقودني الى اكتشاف ، بساطة لم تمنعني من أن أبدأ بطريقة لاشعورية أتنبه لشوقي ، وهدفي طول الوقت ان أستخلصه من تلك التي اعتقدت أنها « حالة » انتابته بعد خروجه من

السجن ، والتي كان من الطبيعي جدا أن تنتابه ،أستخلصه ليعود مرة اخرى ذلك البطل الوطني الذي عرفته ، ولـو حتى سار في طريق تختلف كلية عن طريقي ، كنت متأكـدا أن « شوقي » ليس من النوع الذي تكفي بضعة شهور من السجن لكي تغيره وتدفعه للتنازل عن رأيه ، مـع أن أيامها كثيرا ما كنا نقابل زملاء ومعارف دخلوا متحمسين وخرجوا وقد طلقوا السياسة والوطنية وكل ما يمت اليهما بصلة ، وكأنمـا كان السجن هو الحجة التي ينتظرونهـا لينفضوا يدهم من المعركة .

أقول ، بدأت أتنبه لشوقي ، وكان اول ما لاحظته ان نظرته اكتسبت طابعا آخر لم يكن لها ... كان فـي عينيه دائما بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خـاصة ، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه وتفضح ملامحه الضوء الداخلي وتشعه ، ويتركز النور في عينيه ، وينقل للعـالم صورة نفسه المؤمنة . ذلك البريق كان قد اختفى ، وكأنما اجتث من جذوره ، ولم يبق لعينيه حتى اللمعة التي تميـز عيني كل كائن حي ، كنت كلمـا نظرت في عينيـه أحس باحساس غريب خـاص يضايقنـي أني لا أستطيع إدراك كنهـه ، وأنى لي أن أعـرف انـي أستطيـع أن أدرك كنه ذلك الاحساس الا هناك ، بعد أعوام طويلة ، وفي زمان ومكان كان مستحيلا أن يخطرا على البال .

ثم بدأت أعي أن صوت « شوقي » نفسه قد تغير ، فأصبح لا يتحدث الا همسا ، همس مؤدب خـافت كمن يتوقع دائما أن ترفض طلبه ... ثم هاتان النظارتان ، لا أقصد النظارات الطبية ، أقصد تلك التي تركب للخيل لكي لا ترى الا في اتجاه واحد ، هاتان النظـارتان الخفيتـان اللتان لا تجعلانه يرى الا ما أمامه ، وما أمامه فقط ، أين هذا من «شوقي» المتلفت دائما حوله ، الباحث المنقب في كل شيء من امور الدنيا والناس ، الغاضب الثائر اذا وقعت عينه على الخطأ ، المهدد الدنيا بالويل والتغيير واخضاعها لما يريد ...

شيئا فشيئا ، طوال شهرين أو ثلاثة عملنا فيها معا ، أيقنت ان محاولاتي لاستثارة « شوقي » البطل داخل هذا « الشوقي » الجديد محاولات لا فائدة منها ، بل حتى أملي في أن يخرج عن صمته مرة ويحدثني عما لاقاه خلف القضبان . تضاءل وانعدم تحت تأثير الموقف الواحد الغريب الذي كان يلتزمه .. وكان لا بد أن يأتي اليوم الذي أبدأ أؤمن فيه ان « شوقي » لم يتغير فقط ، ولكنه أصبح بالتأكيد انسانا آخر غير شوقي الذي عرفته .. كم من مرة ضبطته يتآمر مؤامرات صغيرة في القسم ليتاح له مثلا أن يحظى بعملية « فتق » أكثر مني ومن زملائه ، كثيرا ما سمعته ينـافق

« النائب » الذي لا يكبرنا في العمر أو في الوظيفة الا بعام واحد من اجل ان يقرضه كتابا أو يدعه يلقي نظرة فـــي « المنظار » ويكذب .. يكذب باستمرار ، وبلا سبب ، وبطريقة ساذجة مكشوفة تدفع للاشمئزاز ، ولم أصدق الاشاعة التي أطلقتها الحكيمةعليه الا بعد أن رأيت بعيني، رأيت كيف يحضر المرضى في «كشك» الغيار ويساومهم مساومات رخيصة على أن « يتوصى » بهم في العــلاج ، ويأخذ في مقابل هذا بضعة قروش ، هي كل ما يمتلكه المريض الراقد في عنبر المستشفى .

أكثر من هذا لاحظ عليه زملاؤنا في « بيت الامتياز » الذي نقيم فيه انه ما من مرة دخل فيها حجرة احدهم الا واختفى بعد خروجه شيء من محتوياتها ، أي شيء ، ولو كان فرشة اسنان قديمة، حتى أطلقت في البيت حكمة تقول: اذا حياك شوقي باليمين فتحسس محفظتك باليسار ، وعلى عادة الاطباء حـديثي التخرج كثيرا ما عقدت مؤتمرات لمناقشة حالة شوقي ... وكثيرا ما أجمع الكل علـى انه مصاب بالكليبتومانيا أو جنون السرقة ... وكان عسيرا علي أن أشهد مؤتمرات كتلك وأن أرى شوقي الــذي طالما قدره هؤلاء الاطباء أنفسهم وهم طلبة باعتبارهالزعيم والمكافـح يصبـح ليس محط سخريتهم فقط ، وانمـا محط اشمئزازهم واحتقارهم أيضا ، من بين مائة طبيب

او يزيد ، يصبح هو ، الزعيم ، أحقرهم وأصغرهم شأنا.

لا أريد أن أسرد كل ما كان يفعلهشوقي فيسنةالامتياز أو بعدها ... العيادات التي افتتحها والنصب والابتزاز والنظرة الافعوانية الغريبة التي كان ينظر بها الى المرضى والناس،وكيف قاطع عائلته بعد التخرج وأبى أنيساعدهم بمليم ، وكيف ، ومن ، والطريقة البالغـة الشذوذ التي تزوج بها ، والتي حصل بها على الدبلوم ، و «سعى» حتى عين في هذه الوظيفة في مكتب حكيمباشي المحافظة ، لا ولا بأي أسلوب وحشي كان يعامل رواد المكتب ، وخاصة رواده من العساكر طالبي الاجازات ... شاهـدت مرة عسكريا يبكي أمامه بدموع حقيقية يستحلفه ويرجوهان لا يكتب انه متمارض حتى لا يحاكم ويخصم من مرتبه أيام ، ولا يفعل الرجاء والالحاح،ولا تفعل الذلةوالدموع اكثر من أن تجعل شوقي يبتسم وتومض ملامحه فيغبطة، خطورتها أنها كانت حقيقية أيضا .

السؤال الذي لا بد أن يلح على القارىء هنا ،لماذا بعد كل ما ذكرت ظللت مبقيا على علاقتي بشوقي ؟

والاجابة صعبة ، فصحيح كان شوقي قد تحولمن زعيم طلبة الى كائن مزعج مؤذ أصابني شخصيا بمثل ما أصاب غيري من ازعاج وايذاء ، ولكني لـم أكن ارى

المسألة هكذا ، ولا اعتبرتها حالــة « كليبتومانيا » ، ولا تغيرا في شخصية شوقي تسبب عن فترة سجنه . كنت وكأنما أرفض أن اصدق ان بضعة شهور من السجن تحيل انسانا ، مهما كان ، من النقيض الى النقيض ، وكأنما أرفض أن أعتقد أن شوقي القديم قد مات وانتهى ولم يبق منه الا ابتسامة واسعة تدرب على استعمالها ، ابتسامة مهما بالغ فيها تبدو دائما فاترة صادرة عن الشفتين فقط ، يقول بها للمريض في عيادته الخاصة أهلا وسهلا ، ولزوجته صباح الخير ، ويرد بها على تحية عبد الله التومرجي ويخفي بها ملامحه اذا أحرجته بسؤال ، ابتسامة في جملتها تحمل ملخصا وافيا لحياة ناجحة بالمعنى الفاتر الواسع السطحي للنجاح ... لم أكن أرى المسألة هكــذا . كنت لا أزال أؤمن أن شوقي لم يضع ضياعا نهائيا وأن كل ما يبدو من تصرفاته ان هو الا انعكاسات قشرية محضة صادرة عــن قشرة صدأ ألم بشخصيته ، وانها آجلا أم عاجلا ستزول ، والمسألة تتوقف علي وعلى مجهودي معه ، باستطاعتي أن أتركه وشأنه يغرق ويتلاشى تماما ، وباستطاعتي أن أظــل محتفظا بعلاقتنا أحاول بلا يأس أن أعود به مرة أخرى ذلك الكائن الثائر النافع لشعبه وبلده ... كان الواقــع يؤكد لي أن شيئا هائلا خطيرا قد حدث . أنظر الى شوقي وأدقق فيه وفي شخصيته ، فأحس وكأنه مجروح . لا ، ليس

جرحا صغيرا في الصدر أو الرأس ، وانما جرح جرحا شاملا من قمة رأسه الى أظافر أقدام شخصيته ، وان ما أمــامي ليس شوقي ، ولكنه الندبة الضخمة التي تخلفت عن الجرح ... انظر اليه وازداد عنادا وايمانا بأن كــل خطأ ممكن اصلاحه ، وكل جرح ممكن أن يشفى ويندمل ولــم يكن مبعث تفاؤلي هو أملي الخاص فقط ... هناك ، في الغلاف الخامس أو السادس لنفس شوقي من الداخل كانت منطقة لا أستطيع أن أحدد أبعادهــا أو كنهها بسهولــة ، كل ما أستطيع قوله عنها أنها كانت منطقة استماع ربما ، أو رغبة عارمة مخنوقة للاستماع لا تجد لها متنفسا الا من خلالي . أو على وجه أصح الا من خلال تلك الزيارات المتباعدة التي كنت ألقاه فيها ، في عيادته أحيانا ، وفي مكتبه بالمحــافظة أحيانا .. هناك حيث نجلس طويلا نتبادل أتفه الاحاديث، عن مصير الزملاء والكادر الجديد ، ولكن كان يحــدث دائما أن يلتفت شوقي مرة الى الناحية الاخرى ، وكأنمــا يخفي علي بهذه الحركة انفعاله ، ويسألني عن الحالة سؤالا أحس معه بتلك المنطقة جوعى ، تكاد تتشقق ظمأ ولهفــة ... وما كنت في اجابتي آتي بالنادر أو الجديــد ، كنت أتحدث ذلك الحــديث الذي نجيده جميعــا في السياسة بأنواعها وأشكالها ، وأحلــل ما يجري منها في الداخــل والخارج ... ومن الصعيد الشخصي المحض الى صعيد

القوى العالمية الرحبة المتصارعة في عالمنا الحافل ، ورغم أن شوقي كان يرفض دائما أن يتحدثهو أو يعلن، بل ويتعمد أن يبدو حين أتحدث أنا ، وكأن لا صلة له بـالموضوع أو الحديث ، أو ليس له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بكل مـا يمت الى كائن أو قوة خارجة عنه ، رغم هذا الا أني كنت ألحظ دائما أنه رغم كل تمثيلـه يستمع ، ويستمع بلـذة ملهوفة ينجح في اخفائها معظم الاحيان ، حتى اذا سكت استثار سكوتي بسؤال جانبي أو بجذبة نفس من سيجارة أخرى يشعلها ويبتلع دخانها بطريقة من يـود أن يطفىء بدخانها ظمأ بلغ درجة الحريق ، هو الذي طالما ألقى علي ، ونحن طلبة ، المحاضرات في مضار التدخين ودلالته الخلقية المشينة ، هو الذي أصبحت أظـافر يمناه ويسراه والعقد الأخيرة من أصابعه بنية محترقة من لون التبغ . وتطـول الجلسة ، وأنا أفضفض عـن نفسي بالحديث ، وشوقـي يفضفض عن نفسه في حذر عظيم ، بالاستماع وكثيرا جدا ما كنت أتأمل المشهد بروح منفصلة محايدة ، فأرانا فردين من أفراد جيلنا الحائر الذي حمل الرسالة فوق كتفيه حتى كاد أن يسحقه الحمل ، فردان جالسان في حجرة كشف مغلقة ، أو في مكتب حافل بالروائح ، ندخن بكثرة وكأننا ننوي الانتحار مدخنين ونشحن المكان بسحب متكاثفـة لا نعرف ان كـانت مـن احتراق السجائر أم مـن احتراق

الصدور ، ولكننا مع هذا لا نكف، بل نمضي نحرق اللفائف وتحرقنا ، ونملأ الجو بدخان يضغط على صدورنا لتخرج دخانا أكثر ، وأملنا أن ينجح الضغط المتكاثف المتزايد في افراغها مما تحفل به ، من كتل الحديد والرصاص والمآسي المترسبة في أعماقنا تجذب أرواحنا الى أسفل وتحني ظهورنا قبل الأوان ، ونحن اثنان أبعدتنا المقادير عن جيلنـا كما أبعدت جيلنا عن بعضه ، وقذفت بنا داخل هذه القمـاقم المتداخلة من الجدران والأدخنة والمخاوف ، وبيننا مطاردة لا تنتهي ، أنا . الغريق ، أحاول انتشال شوقي وجذبـه ، وشوقي يرفض مذعورا أن ينجو ، وأنا أواصل محاولاتي وكأنما تبلورت أهدافي ومعتقداتي في محاولة انقاذه ، وهو كأنما تبلورت رسالته في محاولة اغراق نفسه أكثر ، واذا استطاع اغراقي ، ويا للسخرية ، لقد كنا بالامس نعمل ، وأملنا مؤكد أننا سننقذ الشعب كله . فاذا كل منا اليـوم غير قادر أن ينقذ نفسه ، بالساعات كنا نجلس هكذا لا ننتبه الى الوقت الا بمؤثر من الخارج ، بليل يهبط أو تليفـون ملح يدق . أو حدث غير عادي يقع ، كتلك الجملة التـي نطق بها عبد الله التومرجي وهو يشير الى الدوسيـه . جملة لم أكن أعرف أنها ستقودني وستقود شوقي الى هذا الذي كان ينتظرنا بعد ظهر يوم الصيف ذلك ...

٤

لم يقل عبد الله أول الامر انـه العسكري الأسود ... كل ما قاله ردا على استفسار شوقي :

ـ ده يا بيه مشكلته معقدة وحالته حال ... مالنا احنا بيه ما تسيبه للحكيمباشي لما بيجي الصبح يعرف شغله معاه ...

كان شوقي في ذلك الوقت مشغولا باحدى عملياته الصغيرة ، كان يبحث في دفتر الاشارات التليفونية التي ترسل للمكتب لتطلب توقيع الكشف على العساكر أو الضباط المرضى ، وكان يفعل هذا لحكمة ومصلحة ... فقد جرت عادته أن يجرد الاشارات ليختار منها واحدة يكون العنوان المذكور فيها قريبا من عيادته اذا كان يريد الذهاب للعيادة أو من بيته ، ويختارها هكذا لكي يوفر

على نفسه ركوب الترام أو الاتوبيس او استعمال عربته الخاصة اذ في هذه الحالة تقوم عربة المكتب الحكومية « الاستيشن واجن » بتوصيله خلسة بعد الانتهاء من المهمة ... في محاولة بحثه عن الاشارات عثر على الدوسيه ، وبسؤال عبد الله عنه تطوع الرجل بذكر حكاية العواء والهبهبة وما لبث أن أعقبها بتلك النصيحة ، ونصائح عبد الله لم تكن مجرد نصائح ، كانت في معظم الاحيان أوامر واجبة النفاذ ، اذ رغم أنه تومرجي المكتب الذي بالكاد يجيد القراءة والكتابة الا أنه لطول عهده بالعمل كان هو الحافظ الوحيد تقريبا لكل لوائح وقوانين القسم الطبي وبالتالي المرجع الاساسي لحل المعضلات اذا نشبت معضلات ، وفتواه هي النافذة اذ كان يثبت في النهاية ، ومهما ثار الحكيمباشي والاطباء عليه ، ان رأيه هو الصحيح وهو الذي ينطبق تماما مع كل ما جرت به اللوائح والقوانين .. وشوقي بالذات كان لا يناقشه اذ كان أخوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطىء في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين ، هو الذي بدا عدوا لكل قانون . أصبحت المسئولية هي عدوه الوحيد اللدود ، يفعل المستحيل ليتجنبها . ومستعد أن يسير أميالا اذا كان في السير ما يجنبه فقرة واحدة يتحمل فيها درهم مسئولية . الى درجة كان يخيل الي فيها أحيانا أنه يود لو يشف جسده

ويشف حتى يصبح كائنا أثيريا لا يتحمل مسئولية ايجاد مكان له فوق سطح الارض أو نظرة يلقيها عليه انسان ، ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونهمه الى الدنيا بطريقة يكاد معها أن يبتلعها ، لو استطاع ، داخل جوفه .

أي كائن بالغ التعقيد كان قد أصبحه شوقي ؟!

المهم ، انتهزت فرصة النقاش الدائر بين عبدالله وشوقي ، ومددت يدي ، وتناولت الدوسيه ، ملف خدمة ذلك العسكري .. تناولته وقد انبثق في نفسي حب الاستطلاع الكامن تجاه هذا النوع من الدوسيهات . كثيرا ما رأيتها في أقسام المستخدمين وقد دمغت بكلمة « سري جدا » . وكثيرا ما اردت تقليبها ، ووقف النظام الذي يقضي بأن لا يطلع عليها الا الرؤساء ، وفي حالات الضرورة القصوى ، حائلا بيني وبين ما أريد .. رحت أقلب صفحات الدوسيه الكثيرة ، أكثر من مائتي صفحة ، في أولها شهادة ميلاد ، وتوافق مضحك أن أجد أن عباس محمود الزنفلي صاحبها وصاحب الدوسيه قد ولد في نفس العام الذي ولدت فيه ، والذي يسبق مولد شوقي بأشهر، كنت أتصور صاحب الملف عجوزا او على الاقل في الاربعين، فاذا به لدهشتي من نفس جيلنا الحائر التعس . مضيت أقلب الصفحات ، ما كان أشبه الملف بكتاب ضخم ، حياة

انسان .. حياة كان واضحا أنها من أولها مضطربة غير مستقرة لم تمش ابدا على الصراط المستقيم ، خدمته نصفها الاول كله جزاءات تتراوح بين الخصم والتكدير وتقارير تمس السلوك (رغم الشهادة المرفقة بالمسوغات والتي يقر فيها اثنان من الموظفين أنه حسن السير والسلوك) . ثم فصول اخرى تتعدد فيها حركته وتكثر التنقلات والانتدابات وينتهي بذلك الخطاب المتوج بشعار مجلس الوزراء الذي يطلب نقله الى حرس الوزراء ، ومن تلك الصفحة لا خصوم ولا انذار ، وانما تفاجأ بقرارات بعلاوات ثم أمر بترقيته الى رتبة أومباشي ، بعدها قرار آخر بترقيته استثنائيا الى شاويش ثم صورة من خطاب شكر وتقدير من وزير الداخلية . ثم صورة قرار آخر بمنحه نوط الواجب من الدرجة الثانية « تقديرا للجهد المشكور الذي بذله في أداء واجبه والتفاني في خدمة مصالح الدولة العليا » .

ولكن هذا كله لم يستغرق من الدوسيه الا أقله ، اذ أغلب الصفحات كانت ما تلت ، وكلها طلبات باجازات مرضية وخطابات متبادلة بين الحكمدارية ووزارة الداخلية وقومسيون طبي المحافظة مؤرخ أولها في نوفمبر ٤٩ وآخرها بعد سنوات ، وبالتحديد في اليوم السابق لذلك اليوم الذي كنت فيه مع شوقي في مكتبه . وورد خطاب

أرسلته المحافظة الى الحكيمباشي تطلب فيه توقيع الكشف الطبي على نفس عباس محمود الزنفلي لاثبات عجزه الكامل تمهيدا لفصله من الخدمة .

وما كدت أنتهي من اغلاق الصفحة الاخيرة ، حتى كانت أذني تلتقط اخريات الحوار الدائر بين شوقي والتومرجي ، والاخير يقول وكأنه يهم باطلاعه على سر .

ــ عارفشي حضرتك عباس محمود الزنفلي يبقى مين ؟ .

وقبل أن ينطق شوقي أو يسأل ، وجدت عبدالله يقول :

ــ ما هو ده اللي كانوا بيسموه العسكري الاسود يا بيه . حضرتك ما سمعتش عليه والا ايه ؟!

ولم يجب شوقي .. كل ما حدث أنه ثبت على وضعه ، وثبتت ملامحه على تعبيرها السابق .. لم يقل شيئا ولم يدهش أو يستنكر ، ظل هكذا وقتا ثم دون ان يغير من وضعه أو يتحرك شيء في ملامحه مد يده ، وتناول مني الدوسيه ومضى يقلب صفحاته .. صفحة صفحة وبامعان تقرأ عيناه كل سطر ، وأيضا دون ان يختلج وجهه

او لسانه أو وضعه بانفعال . كم من الوقت مضى على شوقي وهو يقرأ ، الله وحده يعلم ، اذ كنت في الحقيقة مشغولا عن الوقت بما هو أعظم ، بالاهتمام البالغ الذي كان لفرط خطورته غير باد على شوقي ، ولكنك تحس وجوده ، تكاد تلمسه ، تعتقد لا بد ان شوقي تحول الى كتلة اهتمام رابضة تقرأ وتقلب الصفحات .. أول مرة في علاقتنا طوال سنين أراه يكرس نفسه كلية لشيء ، فنفسه دائما كانت كالاشعة المارة من خلال عدسة مقعرة لا تسقط على شيء بذاته او لذاته ، ولا تتركز في نقطة وكلما حاولت تبددت وتفرقت وكأنما هناك تنافر مشحون بين أجزائها يمنعها أن تلتقي أو تتوحد . كان دائما معك ومع نفسه ومع اشياء أخرى لا تمت بصلة الى الزمان او المكان.



٥

الحقيقة كنت أشعر بسرور صبياني الطعم وأنا جالس بجوار شوقي في المقعد الخلفي للعربة الحكومية ، وسائقها يستغل سترته الرسمية في ارتكاب ما شاء من مخالفات وفي المضي بسرعة مجنونة غير حافل بشتائم المارة والسائقين ، او مجيبا عليها في سره ـ تأدبا ـ بأقبح منها وبجواره عبدالله التومرجي ، لا يكف عن الحديث ، ولا يكف عن الحاحه المقيت بأن تترك الموضوع للغد وللحكيمباشي والضيق بالمهمة باد عليه ، وكان الكشف على زميل له « لتشريكه » وفصله ، مسألة تزعجه ويأبى أن يشهدها أو يكون طرفا فيها .. والصامت الوحيد تماما فينا كان شوقي . كان قد نحى الابتسامة التي كان يعقم بها ملامحه كي لا تنم عن انفعال ، أو حماس ، ومضى ، ربما للمرة الاولى وانا معه ،

يفكر ولا اظن انه كان يفكر ، ولكن عقله بالتأكيد كان يقوم بعمل ما في تلك الدقائق التي استغرقتها الرحلة الى « قلعة الكبش » حيث كنا ذاهبين عمل جاد خطير ما في ذلك شك تحس اذا ما نظرت اليه أنه يحرك اعماقه ويرجها ، بطريقة تئن معها أنينا صامتا وتتلوى ، تلك التي قد ظننت انها مثل قلب الشجرة او النخلة حين يجف ، قد يبست من زمن وماتت ..

ولم يكن سروري بغير مبرر ، كنت رغم كل ما كتبته الجرائد عن العسكري الاسود لا أكاد أصدق احتمال وجوده الحقيقي ، بل حتى لم آكن قد صدقت عبدالله وهو يؤكد لنا ان عباس هذا هو العسكري الاسود ، لأمر ما كنت اوقف ايماني بوجوده ، وحقيقته ، الى أن أراه رأي العين واحادثه ، ولهذا ارتضيت ، بل طلبت من شوقي أن أصحبه ، ولم تكن المرة الاولى التي اصحبه ، ولكنها الاولى التي اطلب فيها ، ولم يكن الامر مجرد حب استطلاع ، كان أكثره العسكري الاسود ، مثله مثل السجون والارهاب والامجاد والكفاح المسلح ، علامة رئيسية من علامات جيلنا كيف تفوتني رؤيتها .

أردت أن أسأل شوقي عن حقيقة دور العسكري الاسود ، هو الذي سجن ولا بد ان لديه الحقيقة. أردت

رغم كل تجاربي السابقة الفاشلة معه ، اذ في كل مرة كـان يرى السؤال يتراقص على لساني ، او يتخذ شكل الكلمات كنت أفاجأ بنظارة الخيل التي تهبط في الحال ومن مكـان خفي وتجعله يشغل نفسه مشغولية عظمى بما في يـده أو بالمريض الذي يسحب له السائل من بطنه ، وبتلك الطريقة يبدو ، وكأنه ينكر ليس علي ، وانما على نفسه أنه سمـع مجرد السؤال .. هذه المرة ، ورغم الظرف الحاد ، تنكر ايضا للسؤال ، ولاذ بالعملية الغريبة الـدائرة في عقله . ولكني لم أيأس . أعدت السؤال والححت ، وظللت أبسط ما أريد واسهله الى الحد الذي اصبح مجرد ان اعرف ان كان قد قدر لشوقي ، اثناء سجنه ، أن يرى العسكري أو يسر بـه . وراحة عميقـة ممزوجة بالـدهشة والوجـل والاستنكار ، وأوله استنكار نجاحي ، هو ما احسسته ، وشوقي أخيرا ينطق ويجيب :

ـ أيوه .. حصل

راحة كراحة وكيل النيابة حين يظفر ، لا بعد ليلـة ، وانما بعد مئات الليالي بعد سنين ، ببارقة كلمة ينطقهـا شاهد او يلج شبح اعتراف ، وفي الحال سألته :

ـ يعني كلام الجرائد كان صحيح ؟

قال شوقي بعد وقفة تردد :

ـ جايز .. انما العسكري الاسود كان بالنسبة لنا شيء ثاني .. شيء غير الحاجات الجنسية والكلام الفارغ اللي سمعت عليه .. شيء ثاني خالص .

وهذا الشيء الثاني هو ما رحت ، مستعمـلا كـل مقدرتي على الاستدراج . أسأل شوقي عنـه ، وازداد الحاحا . ساعتها لم أظفر منه الا بكلمات قليلة ، ومعظـم الاحيان اصوات مضغومة صادرة عن انسان مشغول بما هو أخطر مما تنقله له اذناه ، او كل حواسه ، ولم يقدر لي ان اعرف الا فيما تلا ذلك من ايام وجلست ، والا مـن النتف المتفرقة التي استطعت ان اختلس النظر اليهـا في البحث السري الذي انشغل شوقي بكتابته وتعمد ان يخفيه عني ، ولا اريد ان اصور الامر على ان ما عرفته كان هـو التفسير الكامل لسلوك شوقي الغريب بعد خروجه مـن السجن ، فالحكاية حينئذ تبدو ساذجة كحكايات الافـلام وتمثيليات الاذاعة ، انسان يدخل سجنا بشخصية ويخرج بشخصية أخرى مختلفـة ويظـل سر هذا التغير يؤرق صديقا له الى أن يبدأ شيء يحدث وتنفك العقدة ، ويتكلم البطل ويفسر اللغز وتنتهي المشكلة ..

ليت الانسان كـان كـذلك ، ليته كان كمسائـل

الحساب او تمارين الهندسة يخضع لقانون واحد أو تفسره بضع نظريات .. ليته لم يكن ذلك الكائن الذي لا تزيدنا معرفتنا به الا تصعيبا لمهمة فهمه ، واي حقيقة نكتشفها عنه ويخيل الينا اننا بها وصلنا الى سره ، لا تفعل أكثر من ان تضيء الطريق الى مناطق كنا نجهلها ، مناطق في حاجة الى اكتشافات اخرى لا يفعل اكتشافها الا ان يزيد من حاجتنا لكشف حقائق اكثر .. التغير الذي حدث لشوقي لم يكن من ذلك النوع الذي يرجع لسبب معين او وراءه سر ، ولم يكن سكوت شوقي وعزوفه عن الحديث في السياسة او مزاولتها مثلا ، بسبب عقدة نفسية تكونت له او خوف ، كان ما حدث لشوقي شيئا آخر ، شيئا يشبه خروج الفراشة من دودة الشرنقة ، او تحول الخشب بفعل النار الى رماد .. وليس معنى هذا أيضا انه كان قد تحلل الخشب بفعل النار الى رمـاد .. وليس معنى هذا أيضا انه كان قد تحلل وفسد ، بالاختصار ، كنت قد بدأت خاصة فـي الفترات الاخيرة أتبين أني كنت على خطأ ، وان محاولاتي « لانقاذ » شوقي كان لا يمكن ان تأتي بنتيجة اذ كنت أقوم بها باعتبار ان ما حدث لشوقي كـان مجرد تغييـر أصابه . من الممكن جدا أن يشفى منه .. الحقيقة بدأت أدرك انها غير ما كنت اتصور تماما ، فشوقي الذي دخل السجن لم يخرج منه ، وانما الذي خرج شخص آخر لـه

مزايا ومضار اخرى واقول شخص كنوع من التبسيط لا أكثر ، فالذي خرج كان علينا كائنا غريبا ، أخطر ما فيـه انه لا يختلف كثيرا عن شوقي الذي دخل ، ولا عن ملايين البشر الذين كان يحفل بهم سطح الارض حين انضم اليهم شوقي بعد خروجه ، فهو يتكلم مثلهم ويغضب ويـدير أمور المستقبل ويحب وحتى حين تتحاشى الخوض فـي مواضيع بعينها لا يختلف عنهم .. الفرق لا يتضح الا هناك وبعد طول دراسة ومعاشرة واهتمام غير عادي بالموضوع .. هناك حيث تدرك ، مثلما ادركت ، ان الخلاف بـين شوقي الجديد وبقية الناس يكمن عميقا ، اعمق من طبقات التصوف ، في الدافع ربما ، هناك حيث تدرك ان شوقي وان ظل في ظواهره بشرا فهو في حقيقته لم يعد يمت الى البشر ، ولا الى انواع الآدميين المتعارف عليها من عقلاء او مجانين او مرضى او شواذ باستطاعتك ان تقـول انه خرج ليكون نوعا جديدا قائما بذاته ، اذ قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشري ، فهو لا يحيـا ليتكاثر أو يبقى او يتطور ، وانما دافعه للحياة كـان أن يهرب ويفر وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعفاريت همها ان تنقض عليه وتعقره وتفتك به ، هم جميعا شياطين ، وهو وحده الانسان او هم جميعـا بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونـه ويتربصون به ولن

يهدأوا حتى يقضوا عليه .. ومأساته كانت ان عليه أن يظل يحيا على ظهر الارض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم . عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في امورهم ويصادقهم ويزاملهم ، هو الذي ينتفض رعبا منهم . لم يعد لحياته خطة او ارادة او هدف بعيد يسعى لتحقيقه ويدفعه للبقاء حيا ، دافعه للبقاء أصبح ان يهرب ، ليس مجرد هرب بسيط يمكنه معه أن يتنصل من تبعات الانسان العادي فيطرحها جميعا ويسير كالمجاذيب بلاد الله لخلق الله . ابدا ، عليه ان يهرب وهو موجود بينهم ، الفرار حينئذ يصبح عملية معقدة بالغة التعقيد ، قد تستغرق العمر بأكمله ، ما اغربه من كائن فقد أمنه البشري وكأنما عقره كلب من نفس الجنس وخيل اليه أنه نفذ بجلده من العقرة الاولى فجند نفسه وحياته ليتحاشى العقرة الثانية ، واصبح لا يرى في البشر غير قطيع من ذئاب او كلاب او شياطين لا يستطيع ان يهرب من ارضها الى كوكب آخر او يعتزلها في جزيرة نائية ، قطيع يتربص به في كل مكان ، عليه ان يلقى افراده في كل وقت ، ويحادثهم ، ويربط مصيره بمصيرهم ، وعليه ان يفعل هذا دون أن يبدو عليه الذعر ، عليه أن يسير بينهم كما تمر بالمكان الذي يعج بالوحوش الخطرة ، ترتجف من الذعر ، آذانك منتصبة تتلقى أوهى الاصوات ، وكيانك كله مهيأ

للجري في أية لحظة . ومع هذا فعليك ان تخفي كل ما بك ، عليك ان تسير وتحيا دون ان يبدو منك أقل الخوف، تسير طبيعيا جدا مطمئنا جدا ، تؤكد بنظراتك وتعبيراتك أنك غير خائف او مهتم وانك مبتسم ، وانك فرحان احيانا وغاضب احيانا اخرى ، وانك مثلهم بشر ، او مثل الكلاب كلب ، بل حبذا لو بدوت اقوى واقدر وأكثر ثقة بنفسك وقواك .. حياته لا هدف لها ولا خطة ولا ارادة له فيها ولا يريد من خلالها ان يصل الى أي مأرب بعيد أو قريب اذ مأربه الوحيد ان يتجنب الخطر المتربص به كل لحظة ، فيحيا اللحظة بلحظاتها ، ويبني حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرما شخصيا ، ولكنه يبنيها الى أسفل ، يحفرها تحت الارض كجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما احس في جحر منها بالخطر فر وانطلق يكون جحرا آخر ، وغاية وقتية سفلية هروبية اخرى .. انه يعرفك ويقيم معك الصداقة او الزمالة امعانا في الهرب منك ، ويجاذبك اطراف الحديث ليلهيك عن نفسه ، وينافقك او يصنع معك المعروف لكي يرشوك ، ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج ، ويعمل في قومسيون طبي المحافظة لكي يفر من البوليس والمباحث حتى ولو كان الفرار الى قلب البوليس . وهو لادراكه انه محاصر بالجنس الخطر في كل زمان ومكان ، يواجهه وحيدا ، اذا

صرخ او استغاث فلن يخف احـد لنجدته ، بـالعكس ، سيدركون جميعا انه وقع ويلتهمونه حيا ، لهذا فاعتماده الكامل على نفسه ، هو اصدق اصدقائه ، وصدره أنسب مكان لاسراره ، وعليه ان يعمل جاهدا لكي يبقي أكبر جزء من نفسه ، بل كل نفسه ورغباته وحذره وخوفه بعيدا جدا عن الانظار ، داخل نفسه وعليه ايضا ان لا يبدو وكـأنه يخفي شيئا ، حبذا لو بدا كثيفا لا يظهر منه شيء عـلى الاطلاق حبذا لو احتوى كل دنياه داخله واختفى بكل ما يحتويه عن الدنيا .

كائن غريب ليس له نفسية المجرم مثلا فهو لا يكره الناس او يحقد عليهم ، ولا يريد ان يؤذي احداً ، او حتى كالمعقور المصاب بـداء الكلب البشري ، همـه ان يعقر الآخرين ، ابدا ، همه فقط ان ينجو واذا اضطر لايـذاء احد فهو يفعلها بخبث شديد ويختار بعناية تامة ضحيتـه ولا يفعلها انتقاما او ليخيف بها احدا ممن يحيطونـه مـن المردة والجن ولا حتى يقوم بالايذاء دفاعا عن نفسه ، كما يفعل أي مجرم ، انه يؤذي فقط لكي يموه على من حوله من جان وكلاب ويثبت لهم انه جني هو الآخر ، ليتنكر في زي الشياطين عسى أن ينجح في اخفاء حقيقـة نفسه عن الانظار ، تلك الحقيقة التي لا يعرفهـا سواه ، آه لـو عرفوها . آه لو ادركوا رغبته العارمة في البقاء حيـا ،

رغبة اكبر من رغباتهم مجتمعين ، رغبة عارمة في الحيـاة يؤرقها دائما الخوف الهائل المجنون من الاحياء .

ذلك هو الكائن الذي خرج من السجن وله نفس الاسم ، شوقي ، الكائن الذي له كل مظاهر البشر ، وفي قرارة نفسه لا يمت بصلة الى البشر ، بل يستعمل عقلـه البشري وكل ما منحته الحياة للانسان من مزايا ، ليفر مـن البشر ، ليبعد ، ليختلف جذريا عنهم ، ليبذل طاقات خارقة كي يعمق هذا الاختلاف بمثل ما يبذل من طاقات خـارقة أخرى كي يخفيه . وكي يبدو في الظاهر أكثر شبها بغيره من الناس ، واقرب الى البشر من البشر أنفسهم .

من حقكم أن تسألوني كيف عرفت ، وكيف وصلت الى حقيقة شوقي واكتشفتها هكذا ، ولن أبالـغ وأدعي أني أدركت كل هذا بنفسي ومجهـودي ، فصحيح أنني بذلت جهداً خلال معرفتي الطويلة به كي أخمن أشيـاء وأبحث وراء المعاني المختفية لكلماته ، وأدقق في تصرفاته التي كانت ، مهما أجاد في اضفاء الاقنعة الطبيعية عليها ، تتناقض أحيانا وتتضارب ، وينتج عن تضاربهـا شرارات تضيء وتدفع المهتـم الى الاستقصاء والتنقيب وجمـع الدلالات والخروج بنتائج ..

صحيح كان شيء كثير من هذا قد حدث ، ولكن الصورة لم تكتمل في خاطري ولم أبدأ أدرك وأعي أني كنت في ظنوني وتخميناتي على حق ، الا عن طريق لم يحدث أن خطر ببالي أبدا ، من مصدر لم يكن بينه وبين شوقي أدنى صلة ، فهل يمكن أن يتصور أحد أن توجد صلة بين الدكتور شوقي وبين « نور » زوجة عباس محمود الزنفلي أو على وجه أصح ما روته نور عن عباس؟! أيمكن أن يتصور أحد أنه من خلال قصة تحكيها عن زوجها تبدأ الخيوط المهملة في ذهني والناقصة والمنسية تتكامل وتنتظم وتتضح بحيث ما أن تنتهي حتى أكون قد وصلت الى التصور الكامل لذلك الكائن غير البشري الذي أصبحه شوقي ؟!.

ولكنها الحقيقة ، ولنعد الى ما حدث ..

٦

وان يكن شوقي قد لاذ ، ساعة أن سألته ، بالعملية الغريبة الدائرة في عقله ، الا أني في مرات أخرى بعد حادثة اللقاء ، ظفرت من بعض زملائه القدامى الذين التقيت بهم صدفة عنده .. ظفرت بأشياء ، فيها الغموض أيضا ، ولكنها رغم غموضها استطاعت أن تحدد الملامح الرئيسية لدور العسكري الأسود في حياة شوقي وزملائه دوره الخطير الثاني الذي لا يست بصلة الى الاشاعات الجنسية التي أطلقتها بعض الصحف عليه حين انكشف أمره وبعد زوال حكم الارهاب وبداية مراجعة الجرائم التي ارتكبت في ظله . كان عمل عباس محمود الزنفلي هذا أن يضربهم ، يضرب بعضهم لكي يعترف ، وآخرين لمجرد الضرب وهد الكيان .. الضرب بمختلف أشكال الضرب ، بالعصي ، بالكرابيج ، بالحذاء ، بالنبوت ، باليد العارية المجردة . ولم يكن أسود كما وصفته

الصحف وأفاضت ، كـان فقط غـامق السمرة ، ومـن الصعيد ، وكان مجرد مرآه بالهالـة المحيطة به من أبشع القصص يثير الذعر في القلوب ، كان طويلا ، أطول مـن قامة الكثيرين ولكنه ليس فارع الطول ، وكـان يبـدو دائما مزهوا بنفسه وبقوته ، حتى على زملائه ، اذا سلـم على الواحد منهم ظل يضغط على يده ، لمجرد الضغط ، حتى يتأوه صارخا ويجثو •• وحين يضرب كان من يراه لا يظن ابدا انه يمت الى الانسان او الحيوان بصلة ، بل ولا حتى للآلة ، فالآلة لا تبدو على وجهها المتعة المتوحشة وهي تضرب • ويـا للحظات قدومه ودخولـه العنبر ودوران مفتاحه في القفل ، كانوا يعرفونها تماما وباستطاعتهم أن يميزوها عن غيرها حتى في الحلم ، ويستيقظون ، رغـم خفوتها ، على وقعها • ومع كل دورة من دوراتها تـدور دوامات سريعة في صدر كل منهم ، يسقط فيها قلبه ويهوي •• ترى من عليه الدور ؟ صوت خطواته ، وهو يجتـاز الفناء الأسفل • التسمع الرهيب لوقعها • آذانهم وكيف تعلمت ، علمها الذعر الأعظم ، أن تتركز فيها الحياة كلهـا ويتضخم دورها ليصبح كل العقل ، ولتستطيع أن تميز بين الخطوات الذاهبـة الى زنزانة ٧ في الـدور الاول والاخرى المتجهة عبر الفناء الى السلم حيث الدور الثاني• ومن اول وقع لاول خطوة على أول سلمة عليها أن تعرف

الى أي دور في نيته أن يصعد • فاذا اختار الدور عليها أن تدرك في ومضة خاطفة أي الزنازن يقصد • كي تعد نفسها اما الى الرعب الهائل المقيم • أقصى درجات الرعب • واما الى استرخاءة مرعوبة هي الاخرى وتنهيدة حمد الله •

ويا لخسة ضربه !• في الحياة العادية حين يتشابـك الناس ويتضاربون ليس هذا بضرب ، فاحساس المضروب أن باستطاعته أن يرد الضربة يخفف كثيرا مـن وقع مـا يتلقاه ، والالم الذي ينتج عنها يتبخر في الحال ويستحيل الى حافز يدفع صاحبه للهجـوم والانقضاض بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكـون حرا ان ترده •• أنت تشعر به هناك ، حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده •• هنـاك تجرب الاحساس الحقيقي بالضرب ، بألم الضرب ، لا مجرد الألم الموضعي للضربة او الالم العام الناتج عنها انما بألم آخر مصاحب أبشع ، أقوى ، ألم الاهانـة ، حين تحس ان كل ضربة توجه الى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى الى كيانك كله ، الى احساسك وكرامتك كانسان ، ضربة ألمها مبرح لانها تصيب نفسك من الداخل ، اصابة مباشرة لا يحجبها او يخفف منها جلد او لحم او عظام او حرية او حق الانسان ان يتصرف كالانسان ويرد ، وهذه كلها دروع لو تعلمون عظيمة ، ان حرية الانسان حقـه ان يرفض او

يقبل او يرد الاعتداء جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وانسجته الواقية الحية ، هي ، وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كانسان ، وتحميه . وهي التي اذا انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاة اذا انتزع غطاؤها ، ليته كان يموت ، ولكنه يبقى انسانا منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها ، فما بالك اذا كان يرغم على ان ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء ، وتجبره القوة الغاشمة على السكوت .. على تلقي الالم والسكوت ، على التنازل عن انسانيته وحتى عن خصائص الحيوان فيه والسكوت . حين يستحيل الى كومة عارية من لحم خائف مذعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس ، عليها ان تتلقى الالم وتسكت عليه ، والسكوت على الالم اشد ايلاما وايذاء من الالم نفسه ، خاصة اذا كنت انت من تتولى اسكات نفسك .. الضرب . هذا النوع من الضرب ، حين لا يبقى امامك لكي تمنع ألمه وعاره الا ان تحتمل وتصبر ، او تقتل نفسك وتنتحر ، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس ، وحتى اذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من اتيانه ، اذ كيف يعقل وانت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك ان تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك . بالعكس ، ان ابشع ما في الامر انك لا تحتمل فقط وتصبر ولكنك تزداد استمساكا

بالحياة . وتصل بك حلاوة الروح الى درجة مخجلة في شدتها وقوتها . وهكذا في مقابل كل ضربة هائلة الالم عارمة القسوة مهينة . تتلقاها من الخارج ، تنهال عليك ، من داخلك وذات نفسك الف لعنة ، ألف طعنة . ألف احساس مخجل مهين تمزق احشاءك وتذيب كماء النار ، روحك ، لانك لا تموت ولا تريد الموت ولا تزال حيا تتمسك ذليلا بالحياة ...

والابشع هو مرآه ، مرأى الزنفلي عباس ، العسكري الصعيدي الاسود ، وهو يضرب ، ومنظره وهو يستمتع بتخريب كائن حي وانسان ، والمضروب يتحول امامه الى كتلة اللحم المذعورة التي تصرخ في فزع أعمى فلا يفعل مشهدها أكثر من ان يغريه بالضرب اكثر والتمتع بلذة الهدم اكثر ، فيمضي يضرب ويضرب سعيا وراء الفرحة الكبرى كمن هدم جزءا من بناء ويسعى بمتعة وحشية كي يأتي عليه تماما .. الضرب ، ذلك النوع من الضرب ، حين يتحول المضروب الى انقاض انسان مذعورة، أنقاض تتألم . وبوعي تحس بنفسها وهي تتقوض الى أسفل ، وبارادتها الخائفة تمنع نفسها من ان ترد ، ويتحول فيها الضارب الى انقاض انسان من نوع آخر . وكأنه انسان يتهدم الى أعلى ، يسعده الالم الذي يحدثه في ابن

جنسه . ويستمتع بارادة ، وبارادة ايضا يقتل الاستجابة البشرية للالم في نفسه فلا يكف الا ببلوغ ضحيته أبشع درجات التهدم والتقوض وبلوغه هو أخس مراحل النشوة المجرمة التي لا يستطيعها من المخلوقات جميعها ولا يستمتع بها غير الانسان المنحط في الانسان .

٧

كنا قد وصلنا في رحلتنا الى حارة لا تسمح بمرور العربة رغم كل محاولات السائق لاستعراض براعته وارغامها على المرور ، فهبطنا ، وبينما وقف السائق يذب عن ، الاستيشن واجن ، جيوش الاطفال التي تجمعت عليها ، سرنا نحن الثلاثة . عبد الله ، بنفس قبقابه يحمل الدوسيه وحقيبة الكشف ويرينا الطريق وشوقي بجواري، ومع كل خطوة يتضاعف شغفي وحب استطلاعي لرؤية هذا المارد الاسود الذي أرعب صفوة بأكملها من ابناء جيلنا الموعود ، تراه كيف يبدو وقد دالت دولته من زمن وضاق عليه المصير . شغف جعلني أسهو عن شوقي وأصمت مثلما صمت وارحب بمحاولات عبدالله للتكاسل حتى يوازينا ، ويلقي في اسماعنا بجملة او بذكرى يحملها لعباس محمود الزنفلي كان واضحا أن تأففه من مهمة تشريك زميل له قد انتهى او كاد ، وكان واضحا أيضا انه

وقد ذهب الحرج عاد ليأخذ دوره المفضل ، دور العارف بكل شيء ، الحريص على ان يرينا انه ، حتى في العسكري الاسود ، يعرف ما لا نعرف ويتطوع ايضا بالنصيحة وبتقديم المعلومات .

ـ دا شاف عز يا بيه ولا العز اللى شافه فاروق .. دا كان يدخل المحافظة ناقص يضربوا له نوبة سلام .. كان يقدر ضابط من الضباط يكلمه وهو قاعد .. كان ينقله على طول .. حد منا كان يسترجي يبص له والا يهوب ناحيته .. دا مره والله العظيم وشرفك انت يا سعادة البيه وقع منه قدام عيني دي نص ريال ما رضي أبدا يوطي ويجيبه .. والله لما كنت تشوفه راكب جنب سواق رئيس الوزراء ، والا دولة الباشا ... وكان جبار .. أعوذ بالله .. والله بعيني دي مرة شفته قفلوا عليه الاوضة اللي في الدور التاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي على طول هو وواحد من السياسيين وقعد يضرب فيه من صباحة ربنا والجدع يقول قاي ولا هو سائل فيه ولغاية ما روحنا احنا الساعة خمسة وشرفك سبناه بيضرب فيه ..

ـ بطل كلام يا عبدالله .. البيت فين ؟..

كان القائل شوقي ، فوجئت ، وفوجيء عبدالله أيضا

بصوته يرتفع بالكلمات أعلى مما يجب بكثير ، صوت لا أذكر ان شوقي تحدث به امامي ابدا ، كان كلامه دائما يخرج وكأنه لا يريدك ان تحسب انه قائله ، صوت جعل عبدالله يسكت في الحال وترتد الى وجهه تلك الصرامة النظامية التي كان كثيرا ما يرفعها امام الدكاترة الشبان .. ونظرت الى شوقي . لم يكن عابس الوجه او مقطب الملامح . كان يبتسم بطريقة غريبة وكأنه يبتسم بنصف وجهه الاسفل فقط ، ابتسامة من يستمع الى هاتف بعيد ، قلت له هامسا :

ـ ايه .. افتكرت حاجة ؟!

بنفس الابتسامة قال :

ـ أبدا .. ح افتكر ايه ؟

وهممت بالعودة لتأمل الدكاكين التي نمر بها ، والاطفال وهم يتجمعون حول موكبنا . ولكني بهت حين وجدت شوقي يتخلى فجأة عن وقاره التقليدي ويمسك بذراعي ويجذبني بعصبية قوية ناحيته . ويهمس في أذني كطفل قرر لامر ما ان يفضي الي بسر :

ـ أنت عارف مين اللي كان بيضربه العسكري الاسود في المحافظة ده م الصبح للضرب ؟ عارف مين ؟

والتقت أبصارنا لومضة ، كنت خمنت فيها الاجابة ، وبينما اشعة ضاحكة سعيدة تخرج من عينيه ، خرجت كلمة لتؤكد .

ـ كنت أنا ..

وآخر ما كنت أتوقعه حدث ، اذ مرة اخرى وجدته يترك يدي وجانبي ، ويميل ناحية عبدالله ويقول :

ـ هيه .. وايه كمان يا عبدالله سمعته عن عباس الزنفلي ؟.

ونظر عبدالله الى رئيسه نظرة تساؤل انقلب الى قلق وعدم ارتياح ، وسكت كأنما خوفا ..

وقال شوقي بلهفة وكأنما يستحثه :

ـ ايه سمعته كمان .. قول ..

وكأنما أيقن عبدالله اخيرا أنها فرصة ، فاندفع يتحدث ويدلل على صدق احاديثه بانه احيانا رأى بنفسه واحيانا اخرى جاءته الانباء من صاحب أو زميل .. كيف رآه رئيس وزراء ذلك الحين في المحافظة مرة واعجبه فضمه لحرسه ، وكيف أدرك من رؤيته له واحتكاكه به انه ضالته المنشودة ، وان له في القسوة وتحجر القلب باعا فأعطاه هدية للبوليس السياسي ، وكان عباس نعم الهدية ، فمن بين جميع الذين كان يعهد اليهم بضرب السياسيين

كان هو اكثرهم توحشا وتفانيا لا في تنفيذ الاوامر فقط وانما في اختراع وسائل اقسى وانجع للتنفيذ . وكانوا يقولون انه حين يضرب يفقد وعيه وصوابه ويصبح كالسكران او المجنون الى درجة لم يكونوا يجرؤون على تركه وحده مع الضحايا فيلازمه في عملية الضرب رقيبان عملهما التدخل في الوقت المناسب لانتزاع المتهم حتى لا يفتك به عباس ، وكانوا لا يستطيعون استخلاصه الا بصعوبة والا رغما عن أنف عباس واحيانا بالتكاثر عليه وشل حركته وتكتيفه ، ولهذا كان الرقيبان يختاران دائما من عساكر اقوياء اشداء ، ورغم هذا ففي مرات كان يحدث ان يثور عباس عليهما ويأبى تسليم الضحية وينهال عليهما ضربا ان حاولا منعه .. وكان يأتي في الصباح مع الباشا في عربته وبعد انتهاء مهامه في سجن الاستئناف والمحافظة واحيانا نادرة في نفس غرفة رئيس البوليس السياسي كان يعود ليركب بجوار سائق عربة رئيس الوزراء اثناء موكب العودة . وقد تمنطق بالمسدس الضخم ذي الكردون الاحمر . ويقولون انه كان في بيت رئيس الوزراء كأحد أهله ، يأكل هناك ، ويأخذ البقشيش من الهانم الكبيرة ويجود عليه الباشا بالمنح السخية وعلب السجاير الفاخرة. والعهدة على الرواة ولكنهم كانوا يقولون ان الباشا بالذات كان معجبا اشد الاعجاب بقوامه الفارع المستقيم ،

وكان يعتبره نموذجا للرجل الكامل ، وكثيرا ما كان يأمر باحضاره امام ضيوفه في الصالون . والاجانب منهم بصفة خاصة ، ليفرجهم عليه ويجعله يقف يستعرض قوامه وبناءه وعضلاته امامهم ، فخورا به باعتباره اكتشافه الخاص، وكم من تأوهات كانت تصدر عن السيدات الزائرات لمرآه ..

والى هنا لا ادري لماذا سكت عبدالله عن حديثه ، ربما لادراكه انه تكلم اكثر مما يجب او فيما لا يجب ، ربما لفراغ ما في جعبته ، ربما للنظرة المختلسة التي القاها على الدكتور شوقي ورأى منها ان شغفه بالاستماع كان قد هبط الى درجة الانصراف عنه ، وعنا كلية ، وعاد مرة اخرى يبتسم بنصف وجهه الاسفل ابتسامة من يحاول الانصات الى هاتف بعيد .

٨

كان الباب الذي أوقفنا عنده عبدالله التومرجي لا يمكن ابدا ان يمت لبيت ، فهو لا يشبه بيوت المدينة الفقيرة ، وكذلك لم يكن كوخا او دارا من دور القرى المبنية بالطين . لكأنه الحلقة المفقودة بين الكوخ والبيت ، ومنازل القرية والمدينة ، ولم نكن قد وصلنا اليه الا بقطع عدد لا يحصى من الازقة والحواري ، بعضها تهبط اليه بسلالم ، وبعضها تصله بعد ان تجتاز اكواما عالية من تراب هي في الحقيقة اطلال بيوت تهدمت وسقطت ولم تجد أحدا يزيل أنقاضها وبقاياها فتحولت الى تلال تسد حارة او تصنع هضبة بين شارعين .

دق عبدالله الباب ، وطال دقه دون أن نظفر بجواب حتى خيل الينا ان لا احد هناك .. وبدأنا نشك ان يكون هو البيت المقصود ، ولكن عبدالله راح يؤكد لنا انه لا

يسكن ان يكون قد أخطأ ، وزيادة في التأكيد مضى يدق بجماع يده • وخيل الينا اخيرا اننا نسمع اصواتا مختلطة في الداخل • وارتفع دق عبدالله حتى وجدنا البـاب تحت تأثير الدق ينهار وينفتح من تلقاء نفسه • ومن الباب المفتوح رأينا صالة واسعة ، كفناء دوار عمدة اقيم في قلب القاهرة، صالة خالية من كل شيء الا من كنبـة بلدي بلا (شلته) او مساند ، تحتل احد الاركان • وفي وسط الصالة تقريبا (طشت) غسيل مقلوب تقف عليه دجاجة تنقب بمنقارها في التراب والطين القليل اللاصق بقاعه علّها تظفر بغـذاء فلا يفعل تنقيبها الا ان يجعـل منقارها يرتطـم بالطشت الرنان في دقات منتظمة مملة • تتصاعد رفيعة ملحة رنانة لا تفعل أكثر من أن تزيد الكآبـة في الصالة الواسعـة الخالية •

لم يبق الحال هكذا ولا بقينا واقفين مترددين بين العودة والبقاء طويلا ، فقد فتح باب جانبي ، وخرجت منه امرأة ، نحيفة قصيرة بيضاء ذات عيون سود غائرة كعيون نساء شمال الدلتا ومنطقة البحيرات وان كان الوشم المثلث تحت شفتها السفلى على ذقنها علامة صعيدية اكيدة •• عيون فيها بريق يفهمه الذكر وحده ، ولكنها هزيلة شاحبة بالتأكيد لا تزيد نسبة الهيموجلوبين في دمعها عن الربع • وفي وجهها (قوبة) في حجم الريـال ، وكانت حافيـة

قدماها صغيرتان كاقدام الاطفال او الصينيات ، ترتدي ، في عز الصيف ، جلبابا منزليا كزي الفلاحات من الكستور، جلبابا مهرأ يظهر قميص نوم أصفر نظيفا ، خرجت مـن الحجرة مندفعة ، وكأنما هاربة من شر ، وحين لمحت الباب الخارجي مفتوحا ورأتنا ، ثلاثة رجال طوال يسدون فتحته شهقت ، وفي الحال اختفت داخل حجرة اخرى ، وتركتنا ، واقفين ، نعجب ونقلب الانظار في الصالة ، بينما الدجاجة التي كان قد افزعها خروج المرأة ما لبثت ان عـادت بعد اختفائها تعتلي الطشت وعاد منقارها يصدر ذلك الـدق المنتظم الرنان الكئيب •

وبزهق رفع عبداللـه كفه واهوى بها على البـاب المفتوح في ضربة قاصمة انزعجت لها الدجاجة وشتت شمل السكون ، وارتفع صوته فارغ الصبر مزعجا هو الآخر ، يقول :

ـ يا للى هنا

وفتح الباب ، وخرجت المرأة الصغيرة ، وقد ارتدت ثوبا مهلهلا اسود ، بينما لفت رأسها بثوبها الكستور الذي كانت ترتديه ، ومضت ناحيتنا ، تتعثر في مشيتها وتقول :

ـ اتفضلوا

وباختصار ، وقبل ان تصلنا او نشرع في الدخول ،

كان عبدالله قد شرح لها السبب في حضورنا ، ولدهشتي وجدته قد ضمني الى البعثة واخذ يتحدث عنا باعتبارنا (قومسيون طبي المحافظة) وقد جاء (بكامل هيئته) .

واستغربت ان تفهم المرأة كل شيء لاول وهلة ، لا بد اننا لم نكن أول (قومسيون) تدخل البيت وان بدا واضحا اننا آخرهم .

وحين انتهى من اخبارها لم تفعل اكثر من انها اطرقت مستسلمة ومرة اخرى قالت :

ـ اتفضلوا

ـ انتي مراته ؟.

ـ أيوه يا سيدي

ـ وهوه فين ؟

ـ نايم جوه ..

وللمرة الثالثة قالت :

ـ اتفضلوا ..

وبلهجة آمرة قال عبدالله :

ـ قدام البهوات .. وريهم السكة ..

ولكنها بدلا من هذا وقفت لا تعرف ماذا تقول ، وأخيرا قالت مشيرة الى الكنبة في ركن الصالة :

ـ بس والنبي تستريحوا هنا دقيقة .. دقيقة واحدة ولم نعرف لطلبها هذا سببا . ومع ذلك وجدنا أنفسنا نأخذ طريقا الى ركن الكنبة ، وبينما قررت أن أخضع للامر الواقع وأجلس ، آثر شوقي أن يظل واقفا ، وبالتالي أجبر عبدالله أن يظل كذلك .

وكانت المرأة قد تركتنا ودخلت الباب الاول . وسمعناها تتحدث دون ان يجيبها صوت ثم رأيناها تخرج وتختفي في الحجرة الثانية وتحضر شيئا تواريه في ثوبها عنا، وتدخل به نفس الباب الاول ، وتظل خارجة داخلة ونحن صامتون تتابعها بأنظارنا ، والسكون مخيم لا يقطعه سوى دقات الدجاجة المنتظمة على صفيح (الطشت) وقد أصبح لا يزعجها أو يوقفها عن الدق دخول أو خروج .

وأخيرا بدا أن المرأة قد انتهت من رحلاتها . اذ جاءت ووقفت قريبا منا . وقال عبدالله بتأنيب شديد :

ـ مش خلاص .. الدكاتره مستعجلين .. احنا ورانا قومسيونات تانية كثير ..

وأخفت فمها في جلبابها الطرحة وهي تقول :

ـ أيوه .. حاضر .. دقيقة واحدة بس ..

وانفجر عبدالله :



ـ هي دقيقتكم ايه •• ساعة ؟! والله باينها يوم !

وظلت المرأة واقفة لا تتحرك ولا تجيب ، ثم بدا وكأن هذه الوقفـة القصيرة قدأرهقتها اذا ما لبثت أن سحبت جسدها الى أسفل وجلست القرفصاء مسندة ظهرها الـى الحائط •

٩

لم نكن نعرف لهذا الانتظار كله سببا واضحا ، ولكن لا بد كان له سبب ، والمحرج في الامر كان هو الصمت الذي شملنا وامتد حتى ابتلع دقات الدجاجة وأنسانا اياها• ولامر ما أحسست وكأني مسئول عما نحن فيه من حـرج وعن أزالة هذا الصمت الكئيب • وهكذا بدأت أتحدث الى الزوجة وأسألها • حديثا لم أكن أقدر له أكثر مـن دقائق قليلة اذ كانت لهفتي الاساسة أن أرى (العسكري الاسود) ورغم أنها ، بردها على أسئلتي ، بدأت تجيبني اجابات مقتضبة لا تنطقها الا بعد تفرس خجـل سريع في ملامحي ونواياي ، الا أن اجابتها تلك بدأت تسترعي انتباهي وليس انتباهي وحدي ، شوقي الذي كنت أدرك رغم انعدام الكلمات بيننا أن لهفته لرؤية عباس لا تقل عن لهفتي ، والذي وضح ضيقه من أول لحظة بأسئلتي واضاعة الوقت بفتح مجال للحديث ، بدأ هو الاخر ينتبه ، ويكاد لفرط

متابعته يهم بالقاء أسئلة اخرى ، لولا أنه كان يتراجع قبل نطقها ويحجم • وهكذا امتدت الدقائق الى ربع ساعة والى مرحلة بدأت الاسئلة فيها تقلب المواجع على (نور) الزوجة فتبكي وتدمع وهي تجيب • ولكني ظللت أتابع حتى تعدى الحديث مرحلة البكاء الى مرحلة بدأت تجيب فيها الزوجة بصراحة وصدق وقلب كأنما تريد فتحه وافراغه وقد ناء بما يحتويه ، أو ربما اعتقدت أنها ، بالصراحة ، قد تخفف الحكم الذي نوشك أن نصدره على زوجها •

وأصبح شغفي باستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من (نور) يكاد يطغى على شغفي لرؤية زوجها • بل طغى ، وأيضا لم أكن وحدي • وجدنا أنفسنا نحن الثلاثة ننسى اللهفة والوقت والرجل الراقد في الحجرة ونستمع اليها • وكأنما عداها هي الاخرى اهتمامنا ونست الحاضر ، والراقد ، وراحت تعيش بكيانها كله فيما كان •

والقصة كما استخلصتها من نور الزوجة تختلف بطبيعة الحال كثيرا عن قصة العسكري الاسود كما تطوع بها عبدالله وعن صورته كما رآها شوقي وكل من كان في السجن وقدر له أن يقع تحت طائلته • قصة الفلاح حين يشب قويا أقوى وأصلب عودا من كل أقرانه فتصبح له في البلدة شهرة ، ويصبح لقوته سلطان ومستلزمات ، ليس أقلها

جلباب من حرير • و (لاسة) من السكروته ، وطقم يخطر به ساعة العصر ويقتحم به السوق ، ويتربع به في مجالس الرجال، ويزغلل به وبنفسه أنظار البنات والمطلقات وأنظارها هي بالذات ، بنت عمه وأحلى البنات • قصة الفتونة والمراهنات على حمل أكياس القطن وأجولة الكيساوي والمعارك والنبابيت والخناقات، ومع هذا فما كان أسعدها ــ كما تقول ــ بالزواج به ، واستعدادها ، لا لكي تنتظره أعوام (الجهادية) الخمسة وانما العمر كله ولكنه جاء بعد مدة الجيش وأخذها • وسكن بها في مصر • في نفس هذا البيت الذي لم يغيره الزمن • واشتغل في البوليس • ولم ترزق منه صحيح بأطفال • مشكلة كانت تلح عليه وتضايقه • ولكن فرحتها به كانت على الدوام أكبر من أي ضنك أو قسوة أو انعدام خلف• أخذها للدكتورة مرة ولم يجد الطبيب فيها عيبا وقال له ابحث عن نفسك أنت • ولكنه كان دائما مشغولا بالبحث عن السلطة والتسلط • دائم المشاحنات مع رؤسائه • دائم الثورة على وضعه وزملائه• حتى قدر له في النهاية أن يختاره الباشا ويمسك بهذه الوظيفة التي بدا وكأنها باب السعد والهنا • فما من يوم يعود فيه الى البيت الا ومعه سبت خضار ولحمة ، وضحك يجلجل في الصالة الى ساعة النوم • والبيت يزدحم عليهم بالناس والزوار والسهرات التي تمتد الى ما بعد منتصف الليل • و (الحتة) كلها قد عرفت سر الوظيفة الخطيرة ، وكثيرون

رأوه في جلسته الفاخرة أمام الباشا ، بل لم تلبث عربة الباشا نفسه أن بدأت توصله الى الحي ، ويراها الجيران رأي العين ، مجعوصا فيها ، حتى أم علي (الحصادة) تراه وتأتي لتصف لها ما رأته والشهقات التي كانت تتبعه أينما سارت به العربة وأينما وضع قدمه ، وتطلب منها أن ترقيه من عيون نساء الحي ورجاله ، فترقيه نور أول ما ترقيه من أم علي ، وتقوم من الفجر لتدعو وتطلب من الله أن يقيهم شر الناس ويديم عليهم الستر ، والناس في بيتهم الداخل لا يعرف الخارج ، ومع الخارج والداخل والزائر والقريب والغريب عرائض وشكاوى وطلبات وظائف وترقيات بل ، ويا للسخرية ، شفاعات ورجوات لعباس ، كي يتوسط لدى الباشا للافراج عن معتقلين ومتهمين . فكان يقبل ويخدم الكل ما عدا طلبات الافراج التي كان يضيق بها أشد الضيق ويزجر أصحابها وأحيانا يبلغ عنهم البوليس السياسي . حالة واحدة فقط هي التي قبل أن يتوسط فيها حين فوجئوا بعمدة بلدهم بنفسه ، البيه الرسمي ، أحمدبك مروان . ومعه والده المسن ووفد ضخم من عائلة مروان يطرق باب بيتهم ، نفس هذا البيت ، ويشرب قهوتهم ويخاطب عباس بقوله : يا فندم ، وأحيانا يقول البركة فيك يا عباس أفندي . وأحيانا أخرى يا حضرة الظابط ، بل ويصل الامر الى درجة يقبل فيها يده بعينها رأته نور من خلال الباب الموارب، يتشبث بيد عباس وينحني عليها

ويقسم يمين الحرام أن يقبلها فلا يسالك عباس الا ان يوافق والا بأن يعد أنه سيبذل كل ما في استطاعته لرجاء دولة الباشا والافراج عن بسيوني .. شقيق العمدة ، الطالب المعتقل وينجح في الافراج عنه ويهديه البيه خمسين جنيها وخروفا ، نقود ، ما أكثر ما دخل جيبه من النقود . مع كل عريضة تندس اليد في جيبه وتترك ما فيه القسمة . ويصرف عباس ويبعزق ولا يتحرك الا في جمع من الحي والبلديات . على القهوة يحيطونه ويؤنسونه . وفي البيت . وفي نفس تلك الصالة الواسعة ينعقد مجلسهم كل ليلة . أيام حافلة عامرة وان كان كل ما يأتيهم فيها كان يذهب ويتبخر ولا يبقى منه . ولم يبق من أيام العز كلها . سوى مائتي جنيه في صندوق التوفير بالبريد . أيام عامرة ولكنها قليلة . ولا تستطيع نور رغم الاسئلة الملحة ومحاولات التذكير أن تحدد بالضبط ماذا حدث ، أو متى ، كل ما لاحظته أول الامر ان عباس كان حين يذهب عنه الاصدقاء والزوار ويصبح البيت خاليا الا منه ومنها، يذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقا فيه . ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس الى أسفل . سادرا في حزن مفاجيء لا تعرف سببه، يبقى هكذا بالساعة والساعتين ، لا يتحرك ، ولا يحدثها ولا يغير من وضعه، انما كان يحدث بين كل حين طويل وحين. أن يرفع رأسه فجأة مستلا من صدره تنهيدة عميقة قائلا .

ايه .. حكم . ثم يعود رأسه يسقط ويعود الى الحـزن الشارد الذي كان فيه . حتى اذا طال الامر وواتتها الجرأة على سؤاله عما به . لم تظفر منه بجواب . أو اذا رفـع رأسه وأجاب لا يقول أكثر . من معلش . كله منه .. بكره تتعدل . كانت واثقة أن ليس في الامر زوجة أخرى أو شاغل من شواغل المعيشة ولهذا كانت لا تلح . وتسكت . خاصة والحالة لا تحدث الا نادرا وكل بضع ليالي مرة. ولكنها ما لبثت ان تكاثرت حتى أصبحت تتكرر كل ليلة تقريبا وتطول. ويطول غياب عباس في (الشغل) ويعود اذا غاب مضعضعا مطحونا كالمضروب علقة . ينـام بغير عشاء ، واذا تعشى استيقظت على صوته المخنوق يصرخ من كابوس، ثم بدأت محنة الافيون ، كانت تعلم انه يأخذه ، ولكنه كان يفعل هذا للمزاج ليس الا ، بتوالي النوبـات والاستغراق في (الشغل) تعلق به وأدمن فيه وأصبح يأخذه في كل وقت ، قبل النوم ، وفي منتصف الليـل وحتى في الصباح على الريق ، واذا فتحت فمها أو اعترضت رماها بنظرة تخلخل مفاصلها وتدفعها الى ابتلاع الريق والكلمات وتغلي وهي صامتة وتتمزق نفسها من الخوف منه وعليه . تضع أمامه الطعام وتعود لتحمله كما وضعته ، وينام ، أصبح لا يأتي الى البيت الا لكي ينام ، ولا يحتمل أن يبقى فيه وحده مستيقظا ، ينام ويطلب منها أن تصحيه في ساعـة مبكرة

فاذا جاء الصباح ونادته ليستيقظ زجرها ، فاذا مضت في محاولتها يكاد يقتلها ليسكتها وليستمر نائما . وجاء عليه اليوم الذي لم يذهب فيه الى القهوة واذا حضر أصحابه وسألوا عنه أمرها أن توزعهم وتدعي لهم أنه غير موجود. كانت تقول لنفسها كلمـا ووجهت بجديـد ان هي الا عوارض لن تستمر ، وأنه لن يلبث أن يعـود الى نفسه والى عباس الذي كانه زمـان ولكن كل يوم يقبل كان يجيء معه بتغيير ، الى أسوأ ، حتى ليصبح منتهى أملهـا أن يعود مثل الامس فقط ، بل حين يئست من هذا أيضا أصبح كل ما تطلبه من الله أن يبقى على ما انتهى اليـه هو ذلك الشخص المكشر الملامـح ، الغاضب دائمـا ، الضيق الخلق الذي يثـور لأتفـه سبب ، وبلا سبب ، والذي لم يعد ينفق على البيت أو عليها ، ورغـم كل ما يكسبه فمحفظته تحت المخدة دائما خاوية وكأنه يلقي بما يكسب في بلاعة لا تنسد ، شخص سائر في طريق لا تدري الى أين ولكنه يبعد عنها ، وعن النـاس حتى أصبح لا يلقي السلام على أحد . وكأن السلام مشقة ، ويتحاشى الناس وكأنهم أعداء ، له كل يوم واقعة شتم أو سب أو تمـاسك وضرب ، مع الجـار وصبي البقـال وراكب البسكليت اذا دق الجرس ، حتى كـاد يخاصم النـاس كلهم ، وأجمـع الكل على أن البعد عنه غنيمـة . فاذا

ضاق بنفسه ووحدته مرة وأرسل في طلب أصدقاء زمان ، وجاءوا ، يأتون مكرهين ، ويجلسون مكرهين ، ويستمعون الى حديثه الذي يفرضه عليهم فرضا ، حديث مملوء بمواقف هو دائما فيها البطل وبقصص لا بد كسر فيها ذراع واحد من السياسية بضربة أو هشم أسنان آخر ببونية ، وماذا قال له دولة الباشا وماذا عاد ، حتى اذا لمح أي عطف في ملامح سامع ، أو بدت كلمة نقد لما تفعله الحكومة اندفع يتحدث ، بفظاظة ، عن الحكومة ، ودولة الباشا ، والعهد ، وكأنه أحد أصحابه والقائمين به، وكثيرا ما يقول : احنا عملنا واحنا كان لازم نسوي أو يصف السياسيين والمعارضين ، بقوله : دول أعداءنا لا تستمر الجلسة طويلا اذ لا يلبث أفرادها أن يتسللوا واحدا وراء الآخر متذرعين بحجج ، واهية في معظمها ، ويظل بعد ذهابهم يلعنهم ويلعن الحي والناس ، يلعنهم لنفسه وهو يحدث نفسه . وحديثه لنفسه كان طارئا أول الامر ولكنه لم يلبث أن أصبح عادة تكون في الصالة أو الحجرة الاخرى فتسمعه يتحدث أو يزعق أو يشتم أو يزفر زفرة حارة ويتنهد قائلا بأعلى صوته : ايه ... آه .. أيوه .. كله منه .. حكم .. ملعون أبو الدنيا .. ملعون أبوهم كلك واحد واحد ..

وأيضا لا تعرف نور كيف أو متى جاء اليوم الذي

فطنت الى الحقيقة التي دوخها اكتشافها .. أن عباس لم يعد عباس .. لقد أصبح رجلا آخر لم تره أبدا ولم تعرفه .. رجلا آخر بطبائع أخرى ومزاج آخر .. غريبا .. لا تحس أبدا أنه زوجها الذي تزوجته .. ومن الواضح أنه هو أيضا وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد تبقى سواها بجانبه ، كان واضحا أنه بدأ هو الآخر يستغربها ، وينكرها ، ولا يرعى لها شعورا ولا يهمه من أين تنفق أو كيف تدبر الامور .. أم علي الحسادة تقول لها أن الافيون قد غيره ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون ، كضيق خلقه ، كشروده ونفوره من الناس ، عرض وليس سببا ، السبب أكبر أو أبعد من أن تستطيع وحدها ادراكه .. لقد كانوا يحيون ككل خلق الله في أمان الله فماذا حدث . قالت لنفسها انها العين ، وعين أم علي بالذات ، وأخذت من (سملها) ورقت وبخرت وقالت انه عمل ، وذهبت لشيخ العمولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الاسود وجربت كل علاج ودواء .. وحاله لا تسير الا الى أسوأ . خاصة هجره لها في الفراش ذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنهممنوع عليها بسحر ، التمست فكه ، وفكته ، وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته ، وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها أو يأبه له .

وما كان أسودها من ليلة قررت فيها أن تعتمد على نفسها وتنفض أقنعة الخجل وتواجهه . ليتها ما فعلت . فلقد ظل يستمع صامتا حتى أفرغت كل ما عندها ولم يبق سوى الدموع فبكت . وبدلا من عباس رجلها وابن عمها الذي تعرفه ، أطبق عليها وحش غرس أظافره في لحمها ، ممسكا اياها بكلتا يديه مجيبا على ما قالت بأخس وأقبح ألفاظ سمعتها في حياتها ، ألفاظ ما خرجت من فمه قبل ليلتها قط وما كانت تعتقد أن باستطاعته أن يعرفها أو ينطقها . ولا تدري ماذا منعه من ضربها وسحقها أو قتلها ، فلأسباب أوهى وأقل لم يكن قد ترك انسانا يعرفه دون أن يمد عليه يده ، ماذا أبقى تلك اليد مغروسة الأظافر في لحم ذراعها لا ترتفع وتصفعها ولا تهوي بقبضتها الحديدية عليها وتحطمها ؟ انها لا تعرف ولكنها تؤمن عن يقين أنها قد كتب لها عمر جديد .

وكأنما كان ينتظر ليلة كتلك لينفلت عياره الى آخر مدى ، وليصل الى درجة تدفعها للتفكير في الهرب والهيام على وجهها في الطرقات ، اذ ما كان هناك حل آخر ، فلو غضبت وسافرت الى القرية فلن يكون عقابها أقل من القتل . فكرت ودبرت وأخذت تراقبه لكي تحدد الساعة وتنطلق كان عباس يبدو كمن جن ، يصحو صارخا مرعوبا اذا نام ، واذا انفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال

عليها ، على نفسه ، شتائم وسباب . نفس شتائمه ذات الألفاظ الداعرة ، بل رأته مرة ينهي شتائمه لنفسه بصفعة من يده يهوي بها على وجهه ، وقررت يومها أن لا بد من التعجيل بالفرار ..

غير أن الأيام كانت تدبر شيئا آخر . كان عباس قد عاد من العمل مبكرا على غير العادة ، في الضحى ، ونام ، وظل نائما الى اليوم التالي ، وقبل أن يرقد سمعته يقول لها شيئا لم تفهمه ، وخافت أن تستعيده ما قال ، وفي اثناء نومه جاءتها أم ثابت والحاجة كريمة وأم علي وأخبرتها أن الباشا الذي يعمل معه عباس ترك الكرسي وأنهم سيعملون انتخابات ليجيئوا بباشا آخر . وحين استيقظ عباس حاولت أن تفتح باب الحديث لكي تستطيع اخباره ولكنه كان عازفا عن الحديث ، ذوب قطعة المر وتجرعها وأعطاها ورقة ووصف لها كيف تذهب بها ، وعاد للنوم .

كانت ورقة طلب اجازة مرضية ، الورقة الاولى من عشرات دمغات لم تكن تدري أنها ستتوالى بعدها ولا تكف عن التوالي .

كانت (نور) لا تزال جالسة القرفصاء قريبا من



الكنبة ، وصوتها الصعيدي الناعم المحشرج يخرج على دفعات متقطعة يحكي ويكاد يهز المكان بحرقته وصدق نبراته ، وشوقي قد أرغمه تتبعه المحموم على الجلوس على طرف الكنبة والهبوط برأسه قريبا من رأس نور حتى لا تفوته الكلمة واحجامه قد ذهب وأصبح يسمع . ويشمل المرأة بنظرة نافذة كابر بذل النخاع تحاول استخراج كل ما لا تستطيع المرأة قوله أو تملك القدرة على التعبير عنه ، وبين الحين والحين ينطلق منه السؤال كالقذيفة التي لا يريدها أن تخطىء . والحديث استبد حتى بعدالله التومرجي نفسه الى درجة جعلته يترك الرسميات جانبا ، ويجلس القرفصاء أيضا بجوار المرأة ، يسمع ، وبين الحين والحين يهش بيده ، دون أن يتلفت أو ينظر ، يزجر الدجاجة ويخيفها في محاولات كثيرة فاشلة لاقصائها عن المكان تماما .

وقبل أن تكتمل القصة ونعرف منها كيف مرض مرضه الاخير ، وماذا بالضبط حدث له . فوجئنا بشيء روعنا حقا ، وأنا لا أذكر أني من وقت أن غادرت مرحلة الطفولة وكفرت بالجن والعفاريت والاماكن المسكونة لا أذكر أني خفت خوفا حقيقيا ، كثيرا ما اضطربت مثلا ، أو دق قلبي بانفعال خائف ولكن لم يحدث أبدا أن جزعت وذعرت . ولكني لحظتها خفت ، بل بلغ رعبي حدا كاد

يدفعني لترك المكان والجري بكل قواي . ما فوجئنا به كان صرخة ، أو هكذا ظنناها أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن طالت ، وتغير نوعها وتحولت الى ما يشبه العواء ، ولو كنا في غابة أو حقل لما روعنا ولحسبنا العواء لذئب . ولكنا كنا في قلب القاهرة ، وداخل بيت ، والعواء عواء ذئب ولكنك تدرك أنه صادر عن رجل ، وعن رجل لا يمزح أو يحاول اخافتك ولكنه يعوي حقيقة ويعبر بعوائه عن أشياء مكتومة داخله تتقطع نفسه وهو ينتزعها على هيئة عواء متصل مستمر لا يمكن أن تفرق بينه وبين العواء الحقيقي لذئب .

ولم أكن وحدي الذي خفت ، حين عدت ألتقط أنفاسي وجدت أني كنت دون وعي قد وقفت ، ووجدت أن الآخرين جميعا قد وقفوا أعينهم مفتحة ، وفي حدقاتهم خوف أو وجل وكأن العواء صرخة طفل رضيع هي أ،ه .. وكانت المرأة أول من تحرك ، تركتنا واقفين مشلولين واندفعت الى باب الحجرة التي تصاعد منها العواء بلا خوف أو وجل وكأن العواء صرخة طفل رضيع هي أمه .. وما أن دخلت حتى تصاعد الصوت مرة أخرى ولكنه لم يستمر ، وما لبث أن انقطع وكأنه قطم وارتفع على أثره نحيب .. لولا خشونته القليلة لحسبته نحيب طفل .

وقال عبدالله في رجاء يكاد يتحول الى بكاء :

ــ ما نخليها يا دكتور للحكيمباشي .. اعمل معروف .

ولمحت شوقي أصفر ، زائغ العينين ، يتطلع الى الباب ، ثم الى عبد الله ، والي ، مترددا .

في تلك اللحظة بالذات كنت أمر بحالة الخجل الذي يعقب خوفنا من شيء ، خجل لأننا ونحن رجال قد خفنا ، ذلك الخجل الذي يدفع الانسان في الحال لتحدي ما يخيفه والاستهانة به واقتحامه . ويبدو أن شوقي كان قرأ في عيني ما جعله يحاول باستماتة أن يؤكد لي أنه هو الآخر غير خائف ، وأننا لا بد أن نمضي في المهمة الى نهايتها .

وهكذا دخلنا الحجرة .

كان الوقت قد تأخر ، لا نعرف ان كانت الشمس قد غابت أم لا تزال على وشك المغيب ، والحجرة لم يكن يضيئها غير نافذة صغيرة جدا قريبة من السقف كنوافذ الزنازين والسجون ، وكدنا لا نرى شيئا لحظة دخولنا ، بدت لنا الحجرة كمخزن مملوء بظلام قديم مهمل ، آذاننا فقط هي التي استطاعت أن تميز وتسمع وتدرك أن شهقات

مكتومة تتردد في الجو المشبع بزفرات مبللة بالدموع .

لحظات قليلة هي التي استغرقتها المفاجأة ، بعدها وجدنا أن باستطاعتنا أن نرى ، ونرى بسهولة وكأن عيوننا قد بالغت في التقدير أو أعماها مجرد الدخول .

كانت الحجرة واسعة ، أشبه بالصالة الثانية ، وأثاثها قليل ، (حصيرة) كبيرة تغطي الارض ودولاب عرس قديم طال استعماله في الركن ، والى اليمين سرير ، بأربعة عمدان ، فوقه مرتبة ممزقة الكيس وقطنها ، أسود ، ظاهر وكذلك المخدات والرائحة مقبضة ، تخاف معها أن تتنفس ، فتلهث .

كان عباس الزنفلي يرقد نصف رقدة على الفراش ، والزوجة تسنده ، وكان يبدو كمن كف لتوه عن البكاء . ومن الصعب أن أحاول وصف الحالة التي كان عليها ، فمفروض أن تبدو على المريض آيات الضعف والهزال وأن تتغير سحنته وتتقلب ، ذلك التغير الذي يجعلنا ندرك أن الشخص مريض . من هذه الوجهة كانت تبدو على عباس آيات المرض ، لكن لم تكن هذه الآيات أخطر ما به . أخطر ما به كان في عينيه . أو بتحديد أكثر في نظرته ، فمفروض أن الجسد حين يضعف أو يمرض ويشحب جلده ولونه تبرق عيون صاحبه وتتوهج وكأن شحوب العينين يبدو على هيئة بريق . والمجانين مثلا لهم

نظراتهم وكان الشخص حين يجن تجن عيناه أيضا ، كما يخرف بتفكيره يخرف بنظراته فتصبح وكأن لا معنى لها ولا ارادة وراءها . نظرات عباس لم تكن مريضة أو متوهجة أو مجنونة، كانت ساكنة سكونا مستمرا مستتبا كسكون الموت ، وشاملة أيضا ، فيها ذلك الشمول الذي تحسه للمحيط حين تقف على شاطىء له ولا تستطيع لفرط اتساعه وامتداده أن تتصور أن له شاطئا آخر، في الحقيقة كان سكوتها المستمر وشمولها وامتدادها يجعل النظرات كسطح بحر لا يتحرك وكأنما هو موجود في عالم مفرغ من الهواء ، وبلا شروق أو غروب ، وبلا بداية أو نهاية أو زمن .

دخلنا وفوجئنا بعبد الله يقول بلا مناسبة وبصوت متهدج : سلام عليكم ، موجها تحيته الى عباس ، ولا أعرف ان كان الاخير قد شعر بنا وبدخولنا أو لم يشعر ، اذ حتى السلام الذي ألقاه عبدالله لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه .

ومن لحظة أن دخلنا وبدأت أعتاد المكان وجدت أن اهتمامي لم يعد مركزا على عباس وحالته فقط ، أصبح اهتمامي موزعا بينه وبين شوقي . كان شوقي أثناء سماعه لنور وسؤالها ، وبعدما سمع ما سمع ، وقبل أن

يدخل الحجرة ، وحين دخل وأصبح يضمه مكان واحد مع عباس باستطاعته أن يراه فيه رأي العين ويتثبت من وجوده ، كان قد انتابته حالة لم اره عليها من قبل ، حالة ما كدت ألحظها حتى خيل الي ، وكأنما أضاء النور فجأة في عقلي ، وكأنما بدأت أعي بشيء كنت أراه ولفرط تعودي رؤيته لم أعد أراه . تماما مثلما لا تستطيع أن تدرك أن شخصا ما كان تعسا طول الوقت الا حين تراه فجأة ، يبتسم ، او انه كان راضيا الا حين تراه فجأة ، يغضب . هكذا انتابت شوقي تلك الحالة ، حين بدأت أشياء في نفسه تصطرع وتعبر ملامحه وعضلات وجهه عن صراعها ، حين بدأت انفعالاته تتلون وتتشكل ويخاف ويدهش ويرغب ويستطلع ويتردد .. حين أسقط فجأة بسمته الخالدة فبدا كما لو كان قد أسقط قناعا كان يحجب به نفسه عني وحتى عن نفسه حين لمحت وكأن الحياة قد بدأت تتدفق بسرعة وقوة واندفاع الى كيانه ، وأدركت لحظتها فقط ، مذهولا ، أني كنت خلال السنين الطويلة التي صاحبته فيها بعد خروجه من السجن ، كنت أصاحب شوقي آخر دون أن أدري ، وأن ظنوني كانت على حق ، وتخميناتي عنه كانت صحيحة ، اذ في تلك اللحظة بدا وكأن شوقي القديم ، شوقي الذي كنت أبحث عنه بلا جدوى في شوقي ، شوقي الثائر الحي ، قد دبت فيه الحياة من

جديد ، وصحا ، وكأنه كان ميتا محنطا في مكان ما من جسده ، في ابتسامته المرسومة ربما تلك الابتسامة التي أدركت لحظتها أيضا أنها كانت ابتسامة ميت على وجه حي ، ابتسامة تحس اذا دققت فيها التأمل والنظر أنها البقية الباقية من شخص مات وشبع موتا ، ابتسامة ذكرتني نظرة عباس الزنفلي بها وعرفت منها سر الاحساس الذي كان ينتابني كلما رأيتها . اذ أدركت أني كنت وكأني أتطلع الى سطح بحر هامد شامل لا تتحرك فيه موجة ولا تصدر عنه نأمة وكأنه البحر اذا وجد في عالم مفرغ من الهواء . حالة انتابت شوقي وأحدثت في عقلي دوامات أفكار وتأملات وأحاسيس، ولكني رغم كل ما كان يدور في عقلي وجدت نفسي على وشك أن أحس بفرحة طاغية ، اذ تصورت أنه قد آن الأوان لينفض شوقي عن نفسه شخصية الكائن المذعور المعقور ، وأنه لا بد في طريقه الى العودة ، لا بد أنه عائد ، ولا بد أني لن أغادر الحجرة الا وفي صحبتي شوقي الذي فشلت جهودي لاعادة الروح اليه ، ويئست ولم يعد في جعبتي أي أمل .

وبشغف متزايد مضاعف رحت أتابع ما يحدث . والآن وأنا أحاول تسجيل ما دار واستعادة الصورة وابقاءها بطيئة أتفحصها على مهل وكما أريد ، الآن باستطاعتي التحكم في الزمن وتتابع الصور ، ساعتها لم

أكن في وضع أنا فيه المسيطر ، كانت الاشياء تحدث في لمحات سريعة بالكاد أستطيع متابعتها أو تبينها ، بالكاد أملك القدرة على استرجاع ما سبق اللحظة أو الحركة من تاريخ ، فالمهم في مواقف كتلك ليس فقط أن تتابع ما يدور فيها ولكن أن تتابعه وأنت فاهم مدرك لكل ما سبقه ، وأنت حافظ لتاريخ حياة الموقف اذ هو الذي من خلاله تستطيع أن تفرق بين المهم وغير المهم ، بين الكلمة الواحدة حين يصبح لها قوة الحدث الهائل ، وبين الحدث الظاهر الهائل حين لا يستحق الذكر .

بخطوات يعرف صاحبها لماذا يخطوها ، لا يبدو اضطراب أو وجل فيها ، تقدم شوقي من فراش عباس ، وبعيون كأنما انقطع عنها النظر من سنين ثم استعادت القدرة عليه فجأة شمله بنظرة قوية فاحصة ، لا ذعر فيها، كل ما فيها من اهتزاز مرجعه ربما لوجودي ووجود عبدالله ، نظرة لا كره فيها ولا حقد ولا شماتة ، كل ما يبهرك فيها هي الارادة ، ارادة أن تنظر ولا تخفى عليها خافية . وبمقام من مقامات صوته لم أسمع شوقي ينطق به ، قال :

ــ أنت عباس ...

ودون أن يرفع الرجل الهيكل رأسه سكب على



شوقي كمية ما من نظراته الميتة الوقع والطعم والادراك.

ـ عيان بايه ؟

أطلقها شوقي ، حامية ، وكأنما من صدر حولته حرارة ما يدور فيه من انفعالات الى تنور . وأيضا لم يتحرك الرجل الجالس نصف جلسة ولا بدا عليه أنه سمع .

ـ عباس محمود الزنفلي ؟!

خرجت من فم شوقي كالصرخة ، كالنداء الهادر ، أعقبها بصرخة أخرى :

ـ أنطق .

لم أكن قد سمعت شوقي يرفع صوته أبدا الى درجة الصراخ ، ولم يحدث أبدا أن فقد اتزانه .

وبدأت الفرحة في نفسي تزداد، والامل يكاد ينقلب الى حقيقة، أفرحني ذلك الصوت الذي افتقدته سنين، وأزعجني، فقد كان يتوهج نفس التوهج الصادر من عيني شوقي ، حتى بدأت فرحتي تمتزج بخوف ، أن يحدث شيء أكثر ، مثل أن نفاجأ بشوقي ينهال على الرجل الهيكل ضربا وركلا وخنقا ، وتدخلت طالبا من شوقي أن يتذكر مهمته ، ويعامل الرجل بمثل ما يعامل الطبيب مريضه .

ولكن شوقي لم يأبه لتدخلي ، بل بدا وكأنه لم

يحس به أصلا أو يسمعه ، كان وكأنه يعاني من جنون الفرحة المغلولة التي تنتابنا حين تحين فرصة العمر .

وقالت نور الزوجة :

ـ بالراحة عليه يادكتور .. دا عيان .

ـ أنت عباس الزنفلي ؟!

ورفع الرجل رأسه وأبقى نظرته الميتة معلقة على ملامح شوقي تتلقى الرذاذ الخارج من فمه ويصفعها زفيره المحموم الذي كان واضحا أنه ينتزعه من أعماق سحيقة ، من جروح بالغة القدم بالغة الألم ، أعمارها سنين ، وقروحها حية لا تزال رغم كل العمق والزمن ..

ـ ما تستعبطش .. ما تعملش أنك ناسي .. مش فاكر العنبر .. مش فاكر علق الساعة خمسة .. مش فاكر دور تسعة .. مش فاكر النبابيت .. مش فاكر الكرباج .. مش فاكر الدم .. فين كرباجك وديته فين.. فين صراخك يا وحش فين .. فين نعل جزمتك الحديد.. فين كفك .. فين صوابعك .. فين النار فين .. بص لي وانطق واتكلم وصرخ .. صرخ زي زمان .. سمعني صوتك .. صرخ يا عسكري يا أسود .. بص لي وانطق واتكلم وصرخ .. ما تعملش ناسي وان عملت أفكرك .. حالا أفكرك ..



ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمن أن يخلع جاكتته وقميصه ويرفع فانلته ، ويكشف ظهره ، ويا لهول ما وقعت عليه أبصارنا ، لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره ، كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة وتكشف عن مناطق غائرة ، في قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع ، مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك ، لا لمجرد مرآه وانما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه . لكأن ذئبا مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشا وتقطيعا وفتكا .

في جزء من الثانية كان قد فعل هذا ، فعله وهو يستدير ليواجه عباس بنظره وصراخه لا يكف :

— اذا كنت نسيتني فمش ممكن حتنسى ده .. مش رح تنسى اللي عملته دلوقتي افتكرت .

وكما بدأ فجأة كف فجأة عن عرض ظهره واستدار وهو يصرخ :

— لازم تفتكر كويس ما تنساش ، أنا مش ناسي ، ولا حد ناسي ، ولا حد حينسى ، انطق واتكلم وصرخ وقول انك فاكر ، انطق .

وروعت لما حدث ، للطريقة التي كان شوقي يصرخ بها ، للصوت العالي المزعج ، للهدير ، للصراخ وكيف ظل يعلو ، وللكلمات المفهومة وقد بدأت تصبح غير مفهومة أو متبينة ثم كيف ، لعلوها بدأت تفقد شكل الكلمات ويصبح كل ما يصدر عنه آخر الامر مجرد خيط متصل طويل مكون من أشياء لا ندري ان كانت حقدا أو أنينا أو تألما وبكاء وكيف بدأ خيطها يلتوي ، ويستحيل الى شيء يشبه العواء ، بل الى عواء حقيقي ، عواء مرتجف مستغيث لا يستطيع الكائن الحي أن يطلقه الا وهو يعاني أقصى وأحد درجات الالم ، الالم الذي لا يحتمله بشر ، الألم الذي لا تصرخ معه الحنجرة وانما الصارخ هو الجسد نفسه ، لحم الجسد وعظامه وأعصابه وكأنما يجبرها الألم أن تطلق صرختها المستميتة الاخيرة .

والشيء المخيف أن كل هذا كان يصدر عن شوقي ، وأننا كنا ، أنا وعبدالله والزوجة ، قد أصابنا الشلل لا نعرف ماذا نفعل ، ومنظر شوقي يجعلنا نؤمن ألا قوة في الوجود تستطيع ايقافه ، لا عن الصراخ والعواء ولا عن قتل عباس الزنفلي ، ولا عن قتل أي منا لو أراد .

أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته الميتة ولا يتحرك له جفن ، ولكن ما كاد صراخ شوقي يستحيل

الى عواء حتى رأينا كأن بارقة ادراك قد تحركت فوق سطح العيون الميتة ، أعقبتها في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر ، راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما ، رعبا جعل الحياة تدب أيضا في الجالس المكوم نصف جالس ، وتدب على هيئة خوف ، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش ، ويزحف بزوجته بعيدا الى آخر الفراش ويصغر حجمه ويتكور ، ولم أكن أتصور أن الانسان في انكماشه يستطيع أن يصل الى هذه الدرجة من الصغر ، الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى حالا واختفت الكرة الانسان عن الوجود . وربما رعبه هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه ينكمش ، ويقترب كلما ابتعد، مطاردة لم يوقفها الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرخ فيه ويعوي ولا يكف ، ربما رعبه الهائل ذاك هو الذي حال ، من ناحية أخرى ، بين شوقي وبين الانقضاض عليه وازهاق روحه .

لم يكف شوقي عن تقدمه وعوائه الا حين ، فجأة فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط والتي لم يعد لها مجال للتراجع ، فتحت فمها ، وأطلقت ذلك العواء المزعج الذي أخافنا ونحن في الصالة ، عواء اختلط بعواء

شوقي ، وعلا حتى أسكته ، وحتى أوقفه في مكانه لا يتكلم أو يصرخ أو يصدر عنه صوت ، عواء مرعوب أول الأمر يستغيث ، ثم باك ، ثم عال مجنون مرتفع . ثم .. ثم فوجئنا بما لم نكن نتوقع أبدا بالعواء ينقلب الى هبهبة كهبهبة الكلب ، وبالكرة البشرية تنفرد ويمتد منها فم طويل ينفتح وينغلق في كل اتجاه ويهبهب هاو هاو هاو .. وامتد الفم مرة وكاد يقضم كتف شوقي ، وجزع الاخير . وبدا وكأنما قد عاد اليه وعيه . وفي قفزة كان قد غادر مكانه فوق الفراش ليصبح بعيدا عن متناول الفم الطويل المفتوح على آخره . ولم تنقطع الهبهبة ، بل حدث ما هو أكثر . أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه وبدأ يلوكها بين اسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها ، واحتملت الزوجة قليلا وهي ترجوه أن يتركها ، ولكننا وجدناها فجأة وكأنما ادركت ان يدها على وشك أن تتمزق ، تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهبهبة ، تعقبها بصرخات ، سمعنا على اثرها دق الجيران على الباب ، بل فوجئنا ببعضهم وقد اقتحم الحجرة ودخل ، أكثر من رجل وامرأة وفي اذيالهم اطفال . ورغم وجودهم ووجودنا لم يجرؤ احد على الاقتراب من عباس وانتزاع يد نور من الفم المطبق عليها . ولم ينقذها الا عودة الفم للهبهبة وزوال اطباقه ، ووقفنا جميعا وقد

انضمت الزوجة الدامعة الينا ، وبيننا وبين الفراش مسافة ، ترقب ما يحدث ، ترقب عباس وقد بدأ يضرب الفراش ويهبهب ويعوي ويغرس اظافره وانيابه في قماش المرتبة ويمزقه ويمضغ القطن ، ويزداد هياجه ويبدأ بضرب وجهه بأكفه كمن يلطم ويعمل اظافره في جلده تجريحا وتمزيقا . ونحن ننظر اليه ونعتقد انه في الدقيقة التالية سيهدأ ، فلا يهدأ وكل ثانية تمر تزيده هياجا الى درجة أرعبتنا وجعلت كلا منا يفكر في مغادرة الحجرة لولا ان عباس اهوى بفمه على لحم ذراعه النحيل الذي كان يبدو من كم الجلباب الممزق وظل يضغط وينظر الينا بعيون ملتهبة تحترق ، ويضغط ، ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل ، وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأنما هو لا يحس او يتألم او كأنما الالم يدفعه الى مزيد من الهياج وغرس اسنانه في اللحم . وكان لا بد ان يحدث ما حدث وان تدير النساء وجوههن ، وان ندير وجوهنا معهن ، ما عدا شوقي فقد لمحته لا يستدير ، وانما يظل يتفرس في وقفة مستمتعة مريضة بما يراه، وحين عدنا مرة اخرى نواجه عباس تبين اننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة ، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه ، اذ بين اسنان الفم التي كانت قد انفرجت عنها الشفاه ،

كانت هناك قطعة لحم مدماة ، القطعة التي كان قد نجح في نهشها من ذراعه ، ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته ، ومكان العضة فيها قد اصبح جرحا متهتكا بشعا ، وكان عباس الزنفلي ، لا يزال ، رغم وجود قطعة اللحم بين اسنانه يعوي ويهبهب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عواءه وخنقه .

الغريب أني كنت في تلك اللحظة بالذات قد اكتشفت ان على الحائط المجاور للفراش بروازا فيه شهادة معلقة ، حروفها تلمع تحت الزجاج المتسخ ، والاغرب اني وجدت نفسي اترك كل ما يدور في الغرفة وانهمك في قراءة ما في الشهادة . ولم تكن شهادة ، كانت براءة نيشان الواجب من الدرجة الثانية . فيها نفس الكلمات التي قرأتها في الملف ، والتي كان بصري قد الغى كل شيء حوله وتوقف عندها ، وبالذات عند كلماتها « تقديرا لتفانيه في خدمة مصالح الوطن العليا » !

كان هذا آخر عهدي او عهد شوقي بالعسكري الاسود ، اذ يومها غادرنا المكان حتى دون ان يكتب شوقي قراره ، اذ ترك المهمة للحكيمباشي ولم استطع فيما تلا هذا من ايام ان اخمن ما حدث لشوقي ، ووقع اللقاء وما حدث فيه عليه . كنت قد وضعت خططا كثيرة لمعاودة

المجهود مع شوقي ، وقد أجج املي تلك الدقائق القليلة التي رأيته فيها على حالته الاولى خاصة وقد بدا خلال الايام القليلة التي تلت ذلك شغوفا باثارة الموضوع بمناسبة وبلا مناسبة ، دائب التفكير فيه ، يفاجئني مرة بقوله : أتعرف انك حين تأذي غيرك تأذي نفسك دون ان تدري ، ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول : دع الضارب يضرب ، فيده التي تضرب تمتد ايضا الى ذات نفسه . ولم يقتصر الامر على التفكير ، دخلت عليه يوما فوجدته منهمكا في الكتابة ، وما ان رآني حتى جمع الاوراق محاولا ان يخفيها ، ولكني من بين اصابعه استطعت ان أقرأ عناوين فقرات .. فلسفة العلقة ... الايلام سلاح ذو حدين .. وعناوين اخرى كثيرة . وسألته فقال انه بحث قد يطلعني عليه يوما ما .

وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أؤمن ان الحالة التي رأيته عليها وملأتني بالامل كانت كصحوة ما قبل الموت ، وان ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذي اصبحه ، طريق لا يمكن الرجوع منه ، لا يمكن ان يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره . اجل ، ادركت ما فاتني ادراكه طوال سنين ، ادركت ان شوقي وقد فقد امنه البشري مرة لن يعود أبدا مثلنا بشرا مرة اخرى .

ولا اعرف لماذا كلما راجعت ما حدث لا استطيع ان انسى رغم كل ما رأيته وشاهدته ، كلمة خيل الي انها عادية جدا وطبيعية ساعة ان سمعتها تقال، ولكني لا أعرف لماذا ظلت تلح علي ولا تتركني . الكلمة قالتها امرأة من اللاتي حضرن على صراخ نور ، امرأة لعلها أم علي الحسادة ، وقالت ونحن نتأهب لمغادرة الحجرة وقد اصبح البقاء فيها أمرا لا يتحمله العقل وقطعة لحم عباس بين اسنانه ودماؤه تكاد تصبغ كل ما تقع عليه العين . سمعت المرأة تمصمص بشفتيها وتهمس للواقفة بجوارها : لحم الناس يا بنتي .. اللي يدوقه ما يسلاه .. يفضل يعض انشا الله ما يلقاش الا لحمه .. ألطف يا رب بعبيدك ..

سمعتها ورنت في اذني رنين الكلام الفارغ الذي نسمعه من خالاتنا العجائز لنسخر منه . ولكن لا اعرف لماذا لا تزال تلح علي ..